الفصل السادس

الإسلاموفوبيا في عصر أوباما

تضمنت الفصول السابقة كشافات روايات الإسلاموفوبيا وأوضحت كيف توظّف في الولايات المتحدة لخدمة أهداف سياسية وأيديولوجية محددة، هذا مع حرصنا على التمييز النقدي بين روايات «التيار السائد»، ونظيراتها اليمينية والصهيونية. يذهب هذا الكتاب إلى أن تحيزات التيار السائد المعادية للمسلمين وكراهية العرب المتأصلة والكامنة أتاحت لأشكال الإسلاموفوبيا المتطرفة أن تتجذر بسرعة وثبات في نظرة الأمريكيين إلى العالم بعد ٩/١١. تمكن النشطاء الموالون لإسرائيل ومعهم المتطرفون اليمينيون والإنجيليون من مفاقمة الخطاب السلبي عن الإسلام والمسلمين باستنادهم إلى كتابات برنارد لويس وأمثاله من أجل إضفاء المصداقية الأكاديمية على آرائهم العنصرية.

أعيد بث تلك الروايات التى تداخلت فى نسيج التيار السائد على جماهير الفضائيات من خلال مواضيع للجدل تُطرح على أنها حقائق زوّد الإعلام بها أتباع «ڤلاكنة» بوش. وكما رأينا، ظل المنظرون والسياسيون يكررون أن الحرب على الإرهاب، وعلى الإسلام القتالي، وعلى «الأسلمة» هى إلزام أخلاقى يناظر إلزام الحرب العالمية الثانية. استخدم البيت الأبيض، والصحفيون، والمتطرفون وأفّاقو الوسائط الإعلامية قضايا النساء والمثليين وحرية العقيدة والكلام والتعبير السياسى ذرائع لتدخل الولايات المتحدة فى العالم العربى والإسلامى بزعم مناصرة شعوبه المقموعة.

تُبثّ آراء الإنجيليين ومرتزقة المحافظين الجدد بالمدونات والإذاعة وتشكل جوهر خطابات التيار السائد المهيمنة عن الإسلام والعالم العربي، ثم توظف تلك الهذيانات والمناسبات التى يقيمها دعاة الإسلاموفوبيا آليات أيديولوجية فاعلة، حيث تعمل فى البداية على إقناعاً أكبر عدد من الأمريكيين بأن الإسلام دين عنف لا عقلانى وأن المسلمين يعادون كل ما هو خيِّر وعادل فى العصر الحديث. وكما رأينا فى حالة

جرائم الكراهية. يشارك هؤلاء المنظرون والصحفيون والنشطاء والانتهازيون فى ترويج أشكال من أحاديث الكراهية يبثونها وتعمل على إضعاف حساسية الجمهور الأمريكى ضد اللغة والمفاهيم والصور التى لابد وأن تُدان بصفتها عنصرية فجة لو أنها استُخدمت فى سياقات أخري. بيد أن الروايات المتطرفة تعمل أيضا على فتح مساحة لـ «التنازلات» فى استخدام اللغة العنصرية، وكما يبين محمود ممداني، فقد اعترف شخص مثل برنارد لويس بأن «الأصولية ليست تقليدا إسلامياً بشكل حصري». يمكن للجماهير «المعتدلة» التغاضى عن أكثر تمثيلات الإسلاموفوبيا بشاعة وفجاجة إذا تم تقديمها فى سياق التمييز بين «المسلمين الأخيار» و«المسلمين الأشرار». وفى هذا الصدد، أمدت التعليقات المستفزة من قبل المخبرات/ المخبرين المحليين، والإنجيليين والصهاينة واليمينيين، بوش وتشينى ورايس بمساحة لاتخاذ موقف معتدل وأكثر «عقلانية» إزاء «أصدقائنا المسلمين» بحسب قولهم.

تمثلت عبقرية الاستراتيجية الخطابية لبيت بوش الأبيض فى أن مجمل «الخبراء» والأكاديميين المرتزقة والصحفيين والمخبرات/ المخبرين المحليين عملوا على استقطاب الجدل مما أتاح للرئيس بوش أن يتدخل بوصفه صوتاً معتدلا يعمل على توحيد أصوات الشعب فى بيئة تتكون من المتطرفين والأكثر تطرفا، وكان ما زعم عن الدوافع الأخلاقية للحرب على الإرهاب وتدخل الولايات المتحدة العسكرى يهدف إلى إزاغة النظر عن مقاصدها الحقيقية. اعترف آلان جرينسبان بأن حاجة الولايات المتحدة إلى النفط وعزمها على التحكم فى إنتاجه الكوكبى مرتبط بأسلوب لا فكاك منه بأوضاع الشرق الأوسط عالية المخاطر، وأن مجرد احتمال حدوث أية أزمة نفطية بإمكانه أن يلحق دمارا بالغاً بالاقتصاد العالمي. من ثم، عبر جرينسبان عن أسفه من أن عليه أن يعترف بما يعرفه الجميع: أن سبب الحرب على العراق هو النفط إلى حد كبير.

لكن لا يُعزى نشاط الإسلاموفوبيا الثقافية الأمريكية فى الوقت الراهن إلى إدمان الولايات المتحدة للنفط واعتمادها عليه فقط، هذا على الرغم من أنه فى أعقاب الحظر الذى فرضته أوبك عام ١٩٧٣ هيمنت تنميطات العرب على شاشات التلفزة وانتشرت فى أفلام هوليوود. الأحرى أن الإسلاموفوبيا الثقافية تجسدت بالتزامن مع الظهور التدريجى للعالم أحادى القطب كى تحل محل الشيوعية ليس فقط كمصدر لإثارة مشاعر الخوف والكراهية لدى الأمريكيين، بل أيضا كتبرير لنشر سطوة الولايات المتحدة وقوتها. والآن، غدا بإمكان القوة العظمى الوحيدة تخطى الحدود والحواجز التى لم يكن من الممكن اختراقها من قبل فى وجود القوة السوفييتية الوازنة. لكن اختراق تلك المناطق والبلدان الجديدة ذات الغالبية المسلمة، كان يستوجب إعادة هيكلة اقتصاداتها القومية والمحلية واستمالة نخبها واستيعابها وإلا لكان على الولايات المتحدة مواجهة معاقل المقاومة تلك. يسرت الإسلاموفوبيا تبرير تلك المواجهة.

ليست العولمة مشروعا أمريكيا بشكل حصري، أو مشروعاً مركزه الدولة/ الدول. بيد أنه فقط كان لواشنطون الريادة فى تكريس إمكانيات الولايات المتحدة كاملة كى تدفع باتفاقيات تجارية ثنائية ومتعددة الأطراف عملت على تفعيل إعادة هيكلة بنيوية

كاملة. كان لجورج بوش الأب، ومع زواء الاتحاد السوفييتى الريادة فى توريط الأمم المتحدة واستخدام القانون الدولى ذريعة لاجتياح بنما والعراق، وبهذا أرسى سابقة حماية القانون الدولى للولايات المتحدة كقوة عسكرية غازية استباقية، ثم تبعه كلينتون كرائد للمشروع النيوليبرالى العالمي. تم استخدام الإسلاموفوبيا وتحويلها إلى ظاهرة أيديولوجية جماهيرية. من ثم، مكّن الارتياب فى كل مسلم وعربى بصفته «إرهابياً محتملاً» الولايات المتحدة من الدفع قدما بروايتها التى سوغت هيمنتها على منطقة رأها الجميع تهديدا محتملاً للنظام العالمى الجديد.

«معجم الحرب» لجورج بوش، و«قاموس مفردات» المتفقهين:

فى خطاباته الأولى بعد ٩/١١ أكد جورج بوش على أن السِّمة الأخلاقية للإمبريالية توحد بين الولايات المتحدة وبين «المتحضرين» من أصدقائها المسلمين. بدا آنذاك غير مدرك بإطلاقه لما قد يفهم من مفرداته على أنه دليل على الإسلاموفوبيا المتأصلة، أو لرد الفعل المحتمل للمستمعين المسلمين». أسمى حرب أمريكا حربا صليبية فى تجاهل واضح منه لبغض المسلمين لتلك الأحداث التاريخية، وهدد، بلكنة الكاوبوى المميزة، بتدميرهم والقضاء عليهم. بيد أن «الرئيس الإمبريالي» طور تدريجيا رواية بسيطة ومستدامة لـ «أجندة الحرية» التى تبناها، ولـ «الحرب على الإرهاب» التى رافقتها. بدت هذه الرواية وأنها محاولة للتسامى على إدانة الجمهوريين والديموقراطيين معا للإسلام والمسلمين فى مجملهم.

من اللافت أن ذلك «التسامي» تعرض للنقد، من الليبراليين غالبا، الذين ذهبوا إلى أن بوش كان مفرط التسامح والحميمية مع العرب. استُهدِف بوش بخاصة لعلاقته بالأسرة المالكة السعودية. مثلا، مضى مايكل موور، وكان أحد أكثر الناقدين المفوهين لبوش، باتساق يهاجم بوش لعلاقته بالعرب، حيث وجَّه إليه النقد، وهو يردد أصداء عقيدة اليمين بأن المسلمين ليسوا جديرين بالحقوق الدستورية الأساسية، لأن بوش «يحمى الحقوق المدنية للإرهابيين المحتملين» من خلال رفضه إجراء التحريات حول ما إن كان العرب والعرب الأمريكيون الذين احتجزوا فى أعقاب ٩/١١ قد قاموا

باقتناء أسلحة نارية. قد تبدو خطابات بوش وحتى موقفه من القيام بتلك التحريات (وبالتقابل مع موقف مايكل موور)، بأساليب عديدة، وأنها تموضعٌ ضد التحريات والوسم الذى ينادى به دعاة الإسلاموفوبيا، بل إن بوش قد قام بتوجيه اللوم إلى «عربوفوبيا» وإسلاموفوبيا الحزبين حينما منع السياسيون فى عام ٢٠٠٦ شركة مقرها دبى من الحصول على عقود إيجارية لإدارة ٢٢ ميناء بالولايات المتحدة. ومن المفارقات أن محاباة بوش لأصدقائه قد جعلت منه، بدون قصد، مدافعا عن النخب العربية الحليفة، تلك النخب التي، وفيما عدا تلك المواقف، كان هو قد قام وسياساته بتخطيها أو تجاهلها.

يماثل «دفاع» بوش هذا عن بعض العرب «تعاطف» برنارد لويس مع الشعوب العربية وقلق زكريا على الإصلاحيين العرب إذ إن علينا أن نفهم هذا الموقف بصفته رُمْحا خطابياً وأخلاقياً وسياسياً.. فعلى حين إن بوش ربما يكون قد قصد حماية نفسه من أن يبدو فى حديثه كارهاً للعرب أمام الأمريكيين الذين يقلقهم اتهامهم بالتمييز العنصري، فقد استخلص مجلس وزراء الحرب الذى شكله بوش ومرتزقة الصف الثانى من السياسيين من أعمال لويس وزكريا وغيرهما رواية تبرر العسكرة الأمريكية وتعقلن دعم واشنطون للأنظمة السلطوية بالشرق الأوسط. هدفت تلك الرواية إلى حماية البيت الأبيض وأيضا المستبدين والطغاة الذين يحكمون البلاد العربية والإسلامية من المعارضة الداخلية ومن جماهير شعوبهم البالغ عددهم أكثر من مليار شخص. أيضا، فقد ساعدت الولايات المتحدة على تنمية الصداقات وتوليدها مع مجموعات المعارضة فى بلدان إسلامية مثل لبنان وسوريا، مجموعات لم تكن من قبل «صديقة» للولايات المتحدة.

وكما يبين محمود ممدانى استمد خطاب بوش الخبرة والمهارات من فترة ريجان بتصنيفه المسلمين نوعين: «أخياراً» يدعمون الولايات المتحدة و«أشرارا» يعادونها. وحّد الرئيس، فى وجود مجلس وزرائه المؤلف من قدامى المقاتلين الريجانيين، ومن المقاتلين الريجانيين الجدد، الجمهور الأمريكى واسترضى ضمائرهم بتحميله المسئولية

للمتطرفين المسلمين وإعفائه المسلمين «الأخيار» من المسئولية. سعى بوش من خلال دفاعه عن العرب «الأخيار» إلى الربط بين سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وبين مصالح النخب الحاكمة في المنطقة، وبين «الشارع العربي» من خلال تركيز الانتباه على المعركة المشتركة لإنقاذ الإسلام كدين سلام. منذ أول خطاب له بعد ٩/١١، امتزج دفاع بوش عن «المسلمين الأخيار» بلغة معادية للعرب بوضوح نحتها له كُتّاب خطاباته من أعمال زكريا. وفي نفس الوقت، وجد الرئيس في رواية لويس التاريخية والثقافية ذريعة لالتزام «أخلاقي» إمبريالي يحتم هزيمة الأشرار («من هم ضدنا») في جميع أنحاء العالم، التزام ينبثق عن جوهر «القيم الأمريكية».

واكب «الحرب على الإرهاب» التي أطلقها بوش، والتي كان الالتزام الأخلاقي الذي قال به لويس وبرجماتية زكريا السياسية دعامتين لها، عقيدة حرية الولايات وديموقراطيتها التي هدفت إلى إظهار التناقض بين نسخة مثالية منقاة من المعتقدات الأمريكية وبين نسخة مُشَيْطنة من مقصد الإسلاميين بحيث عمل تواتر تكرارهما على إضفاء ما يشبه الصبغة اللاهوتية عليهما. مضى بوش يكرر القول بأن «الحرب على الإرهاب» هي حرب ضد الأشرار. حرب «ضد الشر» تكمن ضرورتها في أن ثمة «عدوا جديدا يسعى إلى تدمير حرياتنا والقضاء عليها» . قال بوش إن «أمريكا» الآن في حرب مع «أشخاص يكرهون ما تمثله أمريكا كراهية مطلقة» وإن «المتطرفين» لا يستطيعون فهم «الحرية» الأمريكية لأنها تناقض نظرتهم إلى العالم. وبأسلوب يقيني يجزم بوش قائلاً.. «إن هذه القيم هي التي تعرضت للهجوم في ٢٠٠١/٩/١١ بواسطة عدو متوحش يزدري الحرية».

وفي نفس الخطاب، يعيد بوش تكرار هاجس لويس إزاء حقد المسلمين على قوة الغرب العسكرية فيقول «نحن نساند هؤلاء الذين يتوقون للتحرر في الشرق الأوسط لأننا نعرف أن الإرهابيين يخشون الحرية بأكثر مما يخشون قوة سلاحنا وسطوتنا العسكرية، وإننا، من خلال إتياننا بالحرية إلى تلك المجتمعات فإننا نزرع الأمل محل الكراهية».

وعلى الرغم من أن بوش يذكر باستمرار الحرية بصفتها «مبدأ أمريكا» إلا أنه يقول إنها قيمة يشترك فى اعتناقها العالم المتحضر بما فى ذلك العالم الإسلامي. كان هذا الخطاب هو رأس الحربة فى خطاباته لقوات الولايات المتحدة وقوات الحلفاء أثناء أولى جولاته فى الشرق الأوسط فى يناير ٢٠٠٨، والتى لقيت قدرا كبيرا من الإشادة حيث مضى «يُتهته» قائلاً:

«سيوضح التاريخ أن هؤلاء الذين ارتدوا البزات العسكرية فى مطلع القرن الحادى والعشرين فهموا حقيقة أبدية أن الأيديولوجيا القائمة على أساس الحرية ضرورية للسلام، إننا سنجد، فى هذه المعركة الأيديولوجية، وعلى المدى القصير، العدالة ونأتى بالأعداء أمام العدالة، لكن على المدى الطويل، فإن أفضل وسيلة لهزيمة أيديولوجيا الكراهية هى من خلال أيديولوجيا الأمل، التى لا تنفصل عن أيديولوجيا الحرية فى جوهرها الأساسي».

كان بالإمكان، وعلى الرغم من «ثأثأة» الرئيس وجمله غير المفهومة، توصيل خطاب «أجندة الحرية» إلى السامعين، وذلك لأن الأكاديميين المأجورين، والمتفقهين واليمينيين والصحفيين المناصرين لإسرائيل كانوا بالفعل قد رسخوا فى الأذهان فكرة أن المسلمين لا يفهمون سوى لغة القوة، وطبّعوا الأفكار التى تذهب إلى أن «الحرب على الإرهاب ستكون مُحفِّزا حقا لوجود شرق أوسط جديد» و«شرق أوسط ديموقراطي»، وأن ما يفعله الأمريكيون هناك سيفيد العالم أجمع، على الرغم من كل المظاهر التى تشير إلى عكس ذلك.

يستند خطاب «أجندة الحرية» إلى رسالتها «النبيلة» لإنقاذ العالم الإسلامى من المسلمين؛ وهى رسالة كان لويس وزكريا وأمثالهما قد حدّدوها. لا تعمل «أجندة الحرية» على التقسيم بنفس القدر الذى يعمل به المعلقون من الإنجيليين والمحافظين الجدد الذين يكسبون الدعم المحلى لسياسات الولايات المتحدة من خلال أساليب مثل الإيقاع بالمسلمين، وتنميط العرب والشوڤينية. باتباعه السيناريو الذى وضعه لويس وزكريا، مضى الرئيس يستميل الحلفاء المحتملين فى العالم الإسلامى وقام

بصياغة عقيدة الولايات المتحدة التى تدافع عن المسلمين ناهيك عن الإسلام ذاته. قال «إن القتلة الإرهابيين يتخيرون ضحاياهم عشوائيا ودونما تمييز، وتخدم هجماتهم أيديولوجيا واضحة مُركَّزة. يُسمّى البعض هذا توجهات إسلامية شريرة، ويسميها آخرون الجهاد القتالي، والبعض الآخر الفاشية الإسلامية».

يهدف ترويج النموذج المعيارى للولايات المتحدة بصفتها منقذة بلدان الشرق الأوسط «المعتدلة»، إلى تسويغ تدخلها فى المنطقة، ويضعها فى موضع حامى حمى المسلمين والحريات والعقلانية والنساء والأطفال والمثليين. مصدر هذه التصريحات هى الكتابات التى حذّر فيها لويس من «حنق المسلمين وغضبهم». فالمسلمون الأصوليون الكارهون للحرية هم من حفزوا «الحرب على الإرهاب»، حيث يهدف «القتاليون» الإسلاميون إلى «إخضاع النساء وتلقين الأطفال مبادئهم وإقامة إمبراطورية إسلامية شمولية». ليس هؤلاء القتاليون مجموعة حرب عصابات منعزلة فى طورا بورا، وهذا ما تؤكده إيان هيرسى على وإرشاد منجي، حيث إن التهديد الإسلامى منتشر على نطاق واسع، والأفكار الإسلامية الخبيثة متوطنة فى التيار السائد فى أوساط المجتمعات والإعلام والحكومات العربية. ذكر الرئيس لنا، وهو يكرر ما أكده لويس، أن المتطرفين المسلمين «تساعدهم عناصر من وسائط الإعلام العربى تحث على الكراهية ومعاداة السامية، وتغذى نظريات المؤامرة، وتتحدث عما تُسميه «الحرب الأمريكية على الإسلام».

منذ الأيام الأولى بعد ٩/١١، أكد بوش على وجود «شبكة إرهاب»، حيث أعلن أن «عدونا هو شبكة الإرهابيين الراديكالية وكل حكومة تدعمهم»، وأنه على الرغم من أن شبكة الكراهية العنكبوتية متناسجة فى ثقافة حتى أكثر حلفائنا المسلمين موثوقية وسياساتهم، لكنها أكثر رسوخا فى سياسات «الأنظمة المارقة حيث يعمل المعاونون على توسيع نطاق تأثير الراديكالية الإسلامية وتضخيمه». فى أحد أحاديثه المُعلّبة أمام «الوقف القومى للديموقراطية» قال إن «الأنظمة السلطوية، وحلفاء المصلحة مثل سوريا وإيران تقوم بإيواء الإسلاميين القتاليين وتتشارك فى هدف إلحاق الأضرار

بأمريكا وبالحكومات المسلمة المعتدلة، وتستخدم الدعاية الإرهابية لإلقاء مسئولية فشلها على العرب وأمريكا واليهود. وإن تلك الأنظمة المارقة تناظر «الأهداف الشمولية» لتنظيمات مثل القاعدة، وإن «شبكة الإرهاب» هذه هى «المحصلة النهائية لمجموعات ميلشياوية، ومنافذ إعلامية، ورجال الدين، والحكومات التى «تمكنهم». وبما أن العراق لم تكن تجسيدا لتلك العناصر، كان البيت الأبيض على أتم استعداد لفبركة ما يثبت تورطها بما فى هذا خطاب زائف يربط بين التهديد الإسلامى كما جسده محمد عطا، وبين التهديد العربى الذى جسده صدام حسين.

إن الحزم بأن أجندة الحرية كما تبناها بوش قد فشلت يعنى أن الأهداف الظاهرة التى طرحتها خطابات بوش كانت هى مقصدها الحقيقي. لم يُقصد بالحرب على العراق أبدا الإتيان بالديموقراطية، أو تحرير نسائه أو تحقيق أى اهتمام آخر للعراقيين أنفسهم. الأحري، فإن هذا الكتاب يذهب إلى أن «حرب» بوش أطلقت مرحلة جديدة من حملة أيديولوجية كانت قد بدأت فى التسعينيات، حيث نجحت تلك الحرب، ومعها خطاب لويس الذى استندت إليه، فى حشد تشكيل أيديولوجى محدد – الإسلاموفوبيا – لتبرير دور استباقى جديد للولايات المتحدة بالشرق الأوسط. قضت أحادية بوش، وديبلوماسية الكاوبوى التى اتبعها، على تعددية الأطراف التى استخدمها بوش الأب لتصنيع دعم دولى لسياسات الولايات المتحدة التدخلية، وأضفى عليها كلينتون الصبغة المؤسسية لترسيخ هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية على العالم. لكن الأهم من ذلك هو أن بوش أضفى الصبغة المؤسسية على نماذج الإسلاموفوبيا التى أشاعها لويس وزكريا فى كتاباتهما الأكاديمية الزائفة الداعرة. حققت رئاسة جورج بوش نجاحا بالقدر الذى وفرت به «سقالات» عملت فيما بعد على تسهيل دخول الولايات المتحدة الاستباقى ونفوذها إلى البلدان الإسلامية وتوسيع مدى هيمنتها على العالم. وفرت لخليفته لغة أتاحت للتيار الرئيسى الأمريكى أن يرى احتلال الولايات المتحدة للشرق الأوسط، ودعمها لإسرائيل، واستمرار تحالفها مع الأنظمة العربية الفاسدة «المناصرة للغرب» رؤية كل هذا على أنه يقوم على أساس من القيم والضرورة بغض النظر عن الكيفية التى تَمكنّا بها من الوصول هناك.

الأمل والتغيير وأوباما

احتفى الكثيرون في الغرب والعالم العربي بترشح باراك حسين أوباما كفرصة لحدوث «تغيير» ورأوا فيه «أملا» في انتهاء العنف والقوة الباغية والعنصرية العارية. سرعان ما تبين الكثيرون، بعيد انتخاب أوباما وأدائه القسم، ما بدا وأنه سجلا متناميا من الحنث بالوعود. كشف التباين بين أقواله الحريرية وأفعاله المشبوهة عن جوهر الرئيس الجديد. علّق البعض على المدى الذي به تمثل تنازلات أوباما وصْفةً للكوارث، وعلى أن رغبته في التوصل إلى إجماع تأتي على حساب المبادئ و«التغيير» الحقيقي على المستويين القومي والدولي. ألقى آخرون الضوء على كيفية تأرجح أوباما بخصوص توفير محاكمات مدنية للمعتقلين بجوانتنامو وعلى عدم وفائه بأحد وعوده الأولى الخاصة بإغلاق المعتقل. لكن القلة القليلة هم من نقدوا مصادقته على تسليم المشتبه فيهم للحكومات السلطوية لتعذيبهم، وعلى شرعنته إعدام المسلمين المشتبه بأنهم إرهابيون واغتيالهم دونما إجراءات قانونية حتى لو كانوا مواطنين أمريكيين. لم يعترض أحد تقريبا على أن إدارته قد جعلت معتقل «الثقب الأسود» بقاعدة باجرام الجوية مركز احتجاز بديلاً يماثل جوانتنامو.

لم يجد النافدون اليمينيون أي سحر في لغة أوباما الآسرة أو في وجهه التليفزيوني. عبر فؤاد عجمي عن أساه حيث رأى أن انتخاب أوباما كان دلالة على التخلي عن «ديبلوماسية الحرية» التي اتسمت بها إدارة بوش، وتنبأ بأن دعوة أوباما للحوار ستُفضح في نهاية المطاف بصفتها «احتيالا مثيرا للشفقة» يسعى من خلالها فقط إلى إعادة ترسيخ مسار السياسة الواقعية وتقبل الحكومات الدينية والسلطويين المارقين، تقبلها على مضض. عمل انتماء عجمي للمحافظين الجدد واستثماره في نظرتهم إلى العالم على منعه من الاعتراف بالأساليب القاطعة التي أشار بها أوباما، حتى أثناء حملته الانتخابية، إلى رغبته في الاستمرار في سياسات جورج دبليو بوش. تغاضى هذا المحلل الشهير للشئون العربية عن ولاء أوباما الصريح للإبقاء على هيمنة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من خلال العمل على عزلة إيران والاستمرار في

احتلال العراق، ومصاعدة الحرب الجوية الخفية فى باكستان وزيادة أعداد القوات فى أفغانستان وكذلك العمليات القتالية هناك.

وفيما ألبس اليمين أوباما زى الحاج المسلم، تزايدت أحاديث الليبراليين والمؤيدين المسلمين فى الداخل والخارج عن أن انتخاب أوباما، يمثل فرصة للخروج من الطريق المسدود الذى وصلت إليه العلاقات بين المسلمين والغرب، كما أثار الخطاب الاستهلالى الذى ألقاه أوباما لدى توليه مقاليد الرئاسة الأمل فى قلوب الكثيرين إذ أعلن قائلاً: «إلى العالم الإسلامي، نحن نبحث عن طريق جديد يقودنا قدما على أساس المصالح المشتركة والاحترام المتبادل»، وبدلا من التهديد الصريح مضى يقول «إلى هؤلاء المتمسكين بالسلطة من خلال الفساد والخداع وإخراس المعارضة، عليكم أن تعرفوا أنكم على الجانب الخطأ من التاريخ، لكننا سنمد إليكم يدا إن كنتم على استعداد لإرخاء قبضتكم».

وجد المسلمون الليبراليون الذين تربطهم صداقات بالإعلام، مثل رضا أصلان، أملا فى هذا الخطاب بعد السنوات العجاف للنظام السابق. قال أصلان «لقد مرت حوالى سبعة أعوام حتى تاريخه منذ أن حذر جورج دبليو. بوش العالم قائلاً من أنه لم تعد ثمه أرض محايدة بيننا وبينهم.

إن مجرد وجود أوباما على ذلك المسرح يعد إعلاناً بأنه لم يعد بالإمكان استدامة عقلية صدام الحضارات التى قسّمت العالم إلى مصنفات مُتخيّلة مثبّتة فى حرب كونية. قدم أصلان رؤية متفائلة لأمريكا «بدا فيها أوباما وقد موضع نفسه بين العالمين مثل جسر يصل الإسلام بالغرب معا كحضارة واحدة متحدة». زعم أصلان أن الوجود الرمزى لأوباما على درجة من القوة انزعج لها بن لادن والظواهري.

أعد هذا التفاؤل المؤيدين لسقطة قاسية وإن كانت مُستحقة. بلا ريب أن أيام جورج دبليو. بوش المتهورة العنيفة تمدنا بأمثلة لا حصر لها عن كيفية انتشار الإسلاموفوبيا وتعزيزها ناهيك عن الاحتفاء بها فى السنوات التى أعقبت ٩/١١، وغزو أفغانستان واحتلال العراق. أورد الفصل السابق سجلا لأحدث تجسيدات

الإسلاموفوبيا وأحاديث الكراهية وأعمال العنف ضد المسلمين وتحليلا لها. وعلى الرغم من عدم شموله إلا أن الفصل يؤكد على أعمال الإسلاموفوبيا وسياساتها، وعلى المحاكمات والاضطهادات التى حدثت فى عصر أوباما. فعلى الرغم من خطاب الرئيس عن «الأمل» و«التغيير»، فإنه وكما يبين فواز جرجس فى مقال له بدورية فورين بوليسى فى ٤ يونيو ٢٠١٠، بعنوان «السم بالعسل: كيف فقد أوباما عقول المسلمين وقلوبهم»، يبين أن العرب والمسلمين الأمريكيين قد علموا الآن أن أوباما سيواصل الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين وأنه «يدلى بالأحاديث» لكنه «لا يخطو على الطريق» ومن ثم فهم محبطون من الفجوة بين «الخطاب والفعل».

يوضح خطاب أوباما الاستهلالى الشهير وخطابه بعنوان «بدايات جديدة» بالقاهرة، وخطاب تسلمه جائزة نوبل للسلام أنه قد أصبح لرواية القوة الأمريكية وجها جديدا مموّها يواكبه استعراض فج للقوة الأمريكية دونما تقديم أية مبررات. بيد أنه، وبدلا من ثثاثة سلفه برواية «معنا أو ضدنا»، يقدم أوباما رواية مطمئنة تتحدث عن تراخى القبضات ومد الأيادى المفتوحة. وبالتقابل مع بوش، يوجه أوباما حديثه لتلك النخب المناوئة لكن توجهاته إليهم محملة بالتهديدات بقدر ما هى إيماءات تصالح. توجه فى خطابه الاستهلالى إلى هؤلاء «المتمسكين بالسلطة من خلال الفساد والخداع وإخراس المعارضة» لكنه عرض عليهم اليد الممدودة إن كانوا على استعداد لإرخاء قبضتهم. وفيما تحدث بوش عن «القيم الأمريكية» بصفتها ضرورة للديموقراطية، يتحدث أوباما عن «القيم الأمريكية» بصفتها «قيما مشتركة» بحيث يبدو وأنه يعرض دعوة للمشاركة فى عالمية القيم الأمريكية وشموليتها. ليست هذه رواية أكاذيب أو خطاباً مزدوجا يهدف إلى الاحتيال على شعوب الشرق الأوسط وقاداتهم أو خطب ودهم، كما لا تتضمن لغة أوباما الخطاب المبهم المروّع الذى أقره نظام بوش وطبّعه. وفى واقع الأمر، فلا يجوز للمرء أن يرتاب فى صدق ما يقوله أوباما، مثلما لا يجوز الارتياب فى الصدق الوقح لخطاب بوش ورمسفلد وتشينى الإرهابى «الشعاراتي» الإمبريالي. كانت ثثاثة بوش وكلامه غير المفهوم انعكاسا

لاستخدامه الفج للقوة وعدوان نظامه المفرط على الشرق الأوسط كى يجعل منه انعكاساً متعثرا للإمبراطورية الأمريكية يفتقد الحياة والإرادة والحرية ومسخاً رهيبا يخدم رأس المال المعولم. وبالمثل، يجب تصديق المعنى الظاهرى لكلمات أوباما. وفى واقع الأمر، فإن كلمات الرئيس الرابع والأربعين تصوغ نفسها فى مسميات جديدة للقوة القديمة، وعلى حين أن تلك المسميات تشكل طبقة من البريق اللامع، إلا أنها مجرد إعادة صياغة فى عالم أحادية القطب لتعبيرات القوة الكوكبية الأمريكية. ولهذا السبب فإنه يجب فهم رواية أوباما الفصيحة كثيرة التفاصيل والخالية من المضمون غالبا حول سياسة أمريكا الخارجية، يجب فهمها حرفياً كما هي. حينذاك سنجد أن خطاباته تتبلور بأسلوب منهجي، بل وهجومى أحيانا فى أشكال أيديولوجية تلقى الضوء على القوة الأمريكية الحقيقية لكنها تُطلقها كشعاع النور الذى يمثل أفضل وسيلة للتعقيم والتطهير.

ظاهرة لويس/ زكريا وتاثيرها:

يمدنا خطاب أوباما الشهير بالقاهرة ذو النبرة الإمبريالية والذى وجهه إلى العالم الإسلامى بتخطيط بيانى أيديولوجى لآرائه عن المسلمين ومكانهم فى النظام الكوكبى للإمبراطورية. يوضح أوباما دونما مواربة أنه ينبغى فهم كلماته حرفياً كما هى وأنها ستُفعّل من خلال الإرادة والقدرة على «الفعل الجسور». وإلى جانب هذا، يوضح خطاب القاهرة ملامح كثيرة مثيرة للاهتمام حيث إنه بدا وأنه شخصية رئاسية يتحدث إلى رعايا كوكبيين لحكمه الإمبريالي، ومن ثم كان ثمة تماثل لافت بين صفاقة بوش وأوباما المشتركة. وفيما أن صفاقة بوش كانت تتخذ هيئة اعتداد الصبى الأبيض الأحمق عضو الأخويات الجامعية بنفسه، كانت صلافة أوباما تمثل استكبار أستاذ القانون بهارفارد ممزوجا بحس بالقوامة الأخلاقية الذى يستشعره الوعّاظ الدينيون.

بيد أن الملمح الأهم لوعظة القاهرة هو أنها تبدى تأثير ظاهرة لويس، أى أنها توضح الدرجة التى بها أصبحت روايات لويس والآخرين تشكل التيار التحتى الدائم للسياسة الخارجية الأمريكية ولأيديولوجيا القوة. مما لا ريب فيه أن تبريرات أوباما

للقوة والسطوة الأمريكية قد تخلت عن كثير من التعميمات الفجة العنصرية التى كان المحافظون الجدد يبدونها دونما مواربة، لكن بنية تخطيط أوباما البيانى الأيديولوجى الدقيق يبدو وأنه قد انتُحِل مباشرة من صفحات لويس وزكريا وغيرهما من عصبة المنظرين الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب. يبدّد أوباما أية شكوك تتعلق بأن الحروب الأمريكية هى حروب ضرورة بحسب ما كان يزعمه بوش، ويؤكد أنها حروب أخلاقية دفاعية من أجل أمن أمريكا الكوكبي. وبالمثل، أوضح أوباما فى خطاب منحه جائزة نوبل أن أمريكا مشتبكة فى حروب لم تسع هى إليها.

مهارات أوباما الخطابية أكثر رقيا وجاذبية بكثير من مهارات بوش، وتخدم أهدافا تكتيكية. تتنصل «صراحة» أوباما من سياسات الإدارة السابقة ومن الإسلاموفوبيا الفجة المنتشرة بالولايات المتحدة. يعترف أوباما بأن «مشاعر الخوف والغضب التى حفزتها أحداث ٩/١١ يمكن فهمها» لكن حتى إن كانت الإجراءات التالية التى اتخذتها الحكومة منطقية، فقد «أدت بنا فى بعض الحالات إلى التصرف بما يتناقض مع تقاليدنا ومُثلنا»، وتمثل تلك الصراحة الظاهرية نقيضا لإنكار بوش وشلته الدائم لارتكاب أية أخطاء أثناء إدارته. بيد أن الأسف الذى يبديه أوباما يصبح أساسا للتبريرات، حيث إن كل اعتراف بارتكاب أخطاء يخفف من وقعه الأعذار والتفسيرات والتبريرات، حيث توضح خطب أوباما تمكنه التام الصريح والمضمر من استخدامات و«لكن» و«بيد أنه»، فقد ورد هذان اللفظان ٣٩ مرة فى خطابه بالقاهرة و٣٠ مرة فى خطابه لدى منحه جائزة نوبل.

يعترف الرئيس، وهو يخاطب جمهورا مسلما، بتسامح الإسلام ويستدعى أمجاده الماضية وإسهاماته على مستوى العالم. لكنه يتبع هذا الإطراء الإلزامى بـ «بيد أنه» المميزة، حيث يقول، وكأنما ليعيد الربط بين الإسلام والإرهاب «بيد أننا سنواجه عنف المتطرفين الذين يمثلون تهديدا خطيرا على أمتنا، سنواجههم بلا هوادة». ثم يمضى قائلاً: «ليست الولايات المتحدة، و لن تكون أبدا، فى حرب مع الإسلام، لكن واجبى الأول كرئيس هو حماية الشعب الأمريكي». والإسلام دين سلام، لكن «المتطرفين

الذين يرتكبون أعمال العنف استغلوا هذه التوترات فى أوساط أقلية صغيرة لكنها فاعلة من المسلمين». مازال للمسلمين إسهاماتهم فى أنحاء العالم لكن عنفهم منذ ٩/١١ «أدى إلى أن ينظر البعض فى بلادى إلى الإسلام على أنه معادٍ ليس فقط لأمريكا وبلاد الغرب، لكن لحقوق الإنسان أيضاً». فى الواقع بإمكان الولايات المتحدة أن تجابه تنميطات المسلمين لكن ينبغى على المسلمين التوقف عن شيطنة أمريكا. على الرغم من رغبة أمريكا إعادة جميع قواتها إلى الوطن، لكن توجهات المسلمين القتالية تمنعها من ذلك. للفلسطينيين، مثل الأمريكيين السود، معركة يخوضونها من أجل الحقوق المدنية، لكن لابد لهذه المعركة أن تكون سلمية؛ إن بعض السياسات الإسرائيلية غير الحكيمة تعمل على إذلالهم، لكن ينبغى عليهم التخلى عن العنف؛ لديهم «جانب واحد» من القصة، لكن عليهم الاعتراف بالجانب الآخر وبإسرائيل. تم انتخاب حماس كما يجب لكن لديهم مسئوليات عليهم الاضطلاع بها. لقد قدمت الدول العربية مبادرات سلام، لكن عليها الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل؛ الولايات المتحدة مستعدة للدخول فى حوار مع إيران، لكنها قد وصلت بالفعل إلى وضع اللاتفاوض. لا يدعى أوباما أنه يعرف ما الأصلح للجميع لكنه سيتحدث باسم جميع من يتوقون إلى الحرية والديموقراطية. للنساء المسلمات الحق فى تغطية شعورهن وللمجتمعات التقليدية الحق فى ممارسة ثقافتها لكن للولايات المتحدة الحق فى التحدث باسم تحريرهن وتبنى المناداة بمساواتهن بالرجال.

احتفى الأمريكيون بخطاب أوباما فى القاهرة بصفته إيماءة مصالحة مهمة، حيث إنه، وبعد كل شىء فقد رأوا سفر رئيس الولايات المتحدة إلى رعاياه المسلمين فعل تواضع. لكن الخاضعين لسطوة الولايات المتحدة وسياساتها رأوا فحوى الخطاب الفعلية لا تخرج عن كونها وعظة أبوية متعالية متسامية تناست واقع مظالم المسلمين. نقل أوباما إلى جمهوره الرسائل ذاتها التى سبق لسلفه أن نقلها إليهم: أن الإسلاموفوبيا الأمريكية، والأساليب العسكرية والتدخلية للولايات المتحدة، وسياسات الاحتجاز، وتسليم المشتبهين لتعذيبهم، وانتهاك حقوقهم الدستورية والدولية، كلها

نتيجة عنف المتطرفين ضد الولايات المتحدة، أى أن تدخلات أمريكا العسكرية وما ترتكبه فى حق البلدان والشعوب ليس نتيجة رغبتها فى فرض سطوتها وتحكمها، بل هى نتاج فرعى لعبئها الثقيل وكرمها وفضائلها.

لا يقتصر تعضون ظاهرة لويس فى خطاب أوباما على خلطه بين أمن الولايات المتحدة وتدخلاتها العسكرية بل يبدو أثرها واضحا حينما تُحوَّل لُغة الأمريكيين من مبشرين يأتون بالحضارة إلى شعوب المنطقة كما كان يزعم بوش إلى مدافعين إيثاريين راغبين على مضض. ومثلما يلقى لويس وعظاته عن الإلزام الأخلاقى بالتدخل فى العالم الإسلامي، يذهب أوباما بوضوح إلى أن الأمريكيين يقبلون العبء على مضض ومن منطلق الضرورة الأخلاقية ويمضى يكرر أنهم يفضلون لو لم يكونوا قوة احتلال لكن عليهم مواجهة عنف المتطرفين فى أفغانستان وباكستان الذين يريدون قتل أكبر عدد ممكن من الأمريكيين.

وكما رأينا، كان ما يصرح به بوش عن «إصلاح» الشرق الأوسط يقوم على أساس أجندة تدخل استباقي، أما أوباما، فقد قام منذ الأيام المبكرة لرئاسته بوضع الخطوط العريضة لأجندته الخاصة بالشرق الأوسط. وإذا كان لويس وزكريا قد اعتاد إلقاء المحاضرات بالبيت الأبيض على مسامع رمسفلد وولفويتز وإبرامز وتشينى حول وجوب إصلاح العالم العربى ووسائل عمل ذلك، فقد قام أوباما بصفاقة بإلقاء محاضرته على المسلمين فى المقر الذى تُقرر فيه تشريعاتهم. فى ذلك اليوم كان أعضاء المجلس التشريعى المصرى الذين حضروا اللقاء فى وضع نواب عن العالم الإسلامى بأكمله، يستمعون إلى التعليمات الرئاسية حول أولويات الإصلاح. وفى هذا الصدد، ذكر أوباما الخطوط الرئيسية لمشروع «إصلاح» و«تقدّم» بالإمكان القول إنه قد انتُحِل حرفياً من أعمال لويس وزكريا. ألقى عليهم درسا فى الديموقراطية وحقوق النساء والتنمية والعولمة، وفى تاريخ الولايات المتحدة والعالم الإسلامي. ثم مضى من هذا المنطلق ليقول «ظلت الولايات المتحدة أحد أعظم مصادر التقدم الذى عرفه العالم على مدى التاريخ. إن هذا التغيير الشامل الذى أتت به الحداثة هو نتيجة

لتقدم الغرب. ويجب أن يكون لبقية العالم نصيب فى هذا التقدم لأن التقدم البشرى لا يمكن إنكاره على الآخرين».

بقليل من التبصر، نجد أن كلمات أوباما محمّلة بخطاب الحداثة الذى ناقشناه فى أعمال زكريا، هذا علاوة على أن هذا الخطاب يلعب دورا أيديولوجيا وبلاغيا حاسما فى إرساء النظرة الكوكبية المعيارية لسياسة الولايات المتحدة. يُفهم من خطاب أوباما الاستهلالي، وخطابه بالقاهرة أنه ينبغى على العالم الإسلامى أن يكون له نصيب من ثراء الحداثة والتقدم وميزاتها، الأمر الذى لا يمكن إنجازه إلا بإقامة شراكة بين النخب الإسلامية القومية وبين النخب الشركاتية والسياسية الأمريكية. يتحدث فى القاهرة عن إقامة علاقة جديدة بين الولايات المتحدة والنخب الإسلامية تقوم على أساس «المصالح المشتركة» و«الاحترام المتبادل». ثم يمضى قائلا «لكى نُشرك الآخرين فى تقدمنا سنقوم بتشكيل فيالق جديدة من المتطوعين ليقيموا شراكة فى نظرائهم فى البلدان ذات الغالبية الإسلامية: سيكون بإمكان نسخة البيزنس هذه فى فيالق السلام «تعميق الروابط بين قيادات البيزنس، ومؤسساته وأصحاب المشاريع بالولايات المتحدة وبين المجتمعات الإسلامية فى أنحاء العالم». يتعهد الرئيس مستخدما «نحن» الملَكية بأن يقوم «بتعيين مبعوثين من مجالات العلوم الجديدة للمشاركة فى برامج لتطوير مصادر جديدة للطاقة، وخلق وظائف صديقة للبيئة، ورقمنة السجلات، وتنقية المياه وزراعة محاصيل جديدة»، ويتعهد أيضا بتدريب جيل جديد من العاملين والمسئولين فى العالم الإسلامي، وتقديم منح دراسية للطلبة المسلمين للدراسة بالولايات المتحدة، وإقامة نظام تبادل بين الطلبة المسلمين والأمريكيين. وعلى أرض الواقع، فإن التعهدات هى وعود باستيعاب المجتمعات الإسلامية فى نظام العولمة الذى تقوده الولايات المتحدة وتهمين عليه، وتحويل مسار وسائل كسب العيش فيها، واقتصاداتها وثقافاتها بحيث تتوافق مع مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية الكوكبية.

من ثم، فإن سياسات أوباما وخطابه حول المصالح المتبادلة، والأيدى المفتوحة، والشركات والحوار والتعاون لا تتعلق باحتياجات الشعوب فى البلدان النامية

والمتخلفة بقدر ما هى وسائل لمزيد من ضم نُخَبها إلى حظيرة مجموعة الثمانية G8 والغرب والولايات المتحدة. يعنى بتعبير «المصالح المتبادلة» إيجاد شريحة شركاء من المتآمرين فى البلدان الحليفة بالفعل وفى تلك الجارى العمل على استيعابها. ولهذا السبب، تم دعوة المملكة العربية السعودية لتكون عضوا فى مجموعة العشرين G20 الجديدة على حين لم تتم دعوة إيران ذات الاقتصاد الأكثر تنوعا، و الأقوى سياسيا، والأكثر سكانا. لكن أيضا، تعمل الوعود بالإتيان بالعالم الإسلامى إلى مجال الهيمنة الأمريكية الكوكبية، تعمل على إضفاء الشرعية على متطلبات واشنطون السياسية والاقتصادية، وتلك متطلبات تم إدخالها إلى التيار السائد من خلال منظّرين ونشطاء وسياسيين يجدون فى لويس وزكريا وفريدمان ناطقين مؤثرين بآرائهم. لكن أوباما نفسه تحدث بتلك المطالب تكرارا فى القاهرة وأنقرة وأوسلو وأماكن أخري. يتطلب منح «الاحترام المتبادل» للعالم الإسلامى الطاعة التى تتخفى فى خطابه فى هيئة تعبيرات مثل «المسئوليات» و«التوقعات» و«حكم القانون» و«المؤسسات الدولية»، وتقاس وفقا لمعايير معينة والجوائز التى تمنح.

تتضمن «المسئوليات» التى على البلدان العربية الصديقة الاضطلاع بها التحكم فى المعارضة الداخلية التى تتحدى هيمنة أمريكا الكوكبية، والعولمة الاقتصادية والسياسات الإقليمية التى تسترضى إسرائيل. كان لويس وزكريا من أوائل من عملوا على شيوع لغة «المسئولية» التى تستخدمها إسرائيل كثيرا لممارسة الضغوط على السلطة الفلسطينية والحكومة اللبنانية من أجل إنزال الضربات بالمقاومة المسلحة ضد إسرائيل وقمعها. ومنذ فترة رئاسة بوش، استخدم جوزيف بايدن وهيلارى كلينتون وجو ليبرمان وجون كيري، وجون ماكين، بين آخرين، «المسئوليات»، كلفظ كودى لإجبار العراقيين والأفغان على معالجة الأزمات الأمنية والسياسية التى أوجدها اجتياح الولايات المتحدة البلدين واحتلالهما والمكائد السياسية التى تمارسها، معالجتها ووضع حد لها. وبالإمكان وضع خطاب أوباما بسهولة فى هذا السياق.

وفى اتباع منه لبرنارد لويس، نجد الرئيس يوبخ القيادات العربية بقوله إنه «لم

يعد مقبولا أن تُستخدم الحكومات العربية لإلهاء الأمم العربية عن المشاكل الأخري»، ثم نجده، وبأسلوب لويس النمطي، يتجاهل آثار السياسات الأمريكية والإسرائيلية على الفلسطينيين ويتخطاها ويحمل الضحايا المسئولية ويقول إن عليهم «الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل وأن يختاروا التقدم بدلا من التركيز على الماضى الذى يؤدى إلى الهزيمة الذاتية».

اتسمت سياسة أوباما فى الشرق الأوسط بخطاب «المسئوليات» و«الاحترام المتبادل»، وهو خطاب يُقصد به فى واقع الأمر نزع الشرعية عن مظالم الشعب الفلسطينى وتقويض دعم الحكومات العربية الفاتر للقضية الفلسطينية، على الرغم من دعم الشارع العربى الكلى والمتفانى لها.

ما «الاحترام المتبادل» و«المسئوليات» إلا دعوة للطاعة الصامتة. وفى أكثر أجزاء الخطاب تعالياً، وإهانة لمشاعر جمهور المستمعين، يُلقى أوباما فى وجه البرلمانيين المصريين بتأكيده على الرباط الذى «لا تنفصم عراه» بين الولايات المتحدة وإسرائيل، ويحاضر الجمهور عما لاقاه اليهود من بشاعات. وبدلا من تحميل الغرب مسئولية تاريخه الضارى العنيف المعادى للسامية، يقوم أوباما، بأسلوب غير مباشر، بتوبيخ العرب على موقفهم «الفظ» المعادى للصهيونية وإسرائيل. وعلى الرغم من كل حديثه عن «التطلعات المشروعة للفلسطينيين»، يظل أوباما راعيا وفياً للدولة الصهيونية، والأهم من هذا أنه يظل مخلصا لأيديولوجيا هيمنة الولايات المتحدة على الشرق الأوسط، وهى أيديولوجيا يجد معها أنه لابد من إسقاط موروث الغرب الدموى الشائن من معاداة السامية على الفلسطينيين لحرف الأنظار عما ارتكبه الغرب من جرائم فى حق الفلسطينيين بفلسطين، وفى حق اليهود بأوربا. يقوم أوباما بتقليص أى اعترفات بالحرمان الذى يعانى منه الفلسطينيون والبشاعات التى ارتُكبت ومازالت ترتكب ضدهم وتذويبها لتصبح «تاريخا أليما للشعبين»، وينتزع بذلك آلام أحد هذين الشعبين خارج سياقات السياسات المحسوبة المستدامة للشعب الآخر [صهاينة إسرائيل] وإجراءاتهم وأفعالهم. يصاعد أوباما نغمة محاضرته بالقاهرة

لتصبح توبيخا يلقيه «الواعظ» على أسماع الجمهور، مفاده أن الفلسطينيين هم من «ينبغي عليهم نبذ العنف» وليس الإسرائيليين الذين يمارسونه يوميا ضد الفلسطينيين من خلال آليات الحصار والتحكم والحرمان والقهر.

محاضرة الحرب لدى استلام جائزة نوبل والواقع الصلب للقوة الناعمة:

يمدنا معمار «البداية الجديدة» التى بشّر بها أوباما فى القاهرة برسم بيانى نفهم من خلاله الرواية الرئيسية لسياسته الخارجية بالشرق الأوسط. وبالمثل، تمثل المحاضرة التى ألقاها لدى تسلمه جائزة نوبل مانيفستو جديدا للسطوة الأمريكية فى عصر ما بعد بوش، إذ إن ما علينا إلا النظر إلى ردود الأفعال الإيجابية للصحافة الأمريكية كى نفهم كيف بدا هذا الخطاب وأنه محاضرة إمبراطورية إمبريالية. ومن المؤكد أنه بالإمكان إعادة تسمية هذا الخطاب ليصبح محاضرة تسلم أوباما جائزة نوبل للحرب، إذ إنه، وبدلا من أن يتعاطى بجدية مع قضايا السلام وسياساته، فقد ألقى أوباما ما يمكن اعتباره رأيا حاسما واضحا عن البرنامج الأيديولوجى الذى يحكم استخدام أمريكا للقوة ويبرر احتلال العراق وأفغانستان، والعنف الذى تُمارسه الدولة الأمريكية فى عشرات أخرى من البلدان الإسلامية بإفريقيا وآسيا. يُعرّف أوباما السلام، وهو يتعاطى بوضوح مع ما يشير إليه على أنه «المعمار القديم لحفظ السلام»، يعرّفه كوظيفة للحفاظ على الأمن من خلال استخدام السلاح فيقول «لقد ظلت الولايات المتحدة تساعد على ضمان الأمن الكوكبى لما يربو على ستة عقود بدماء مواطنينا وبقوة أسلحتنا».

بالإمكان تقسيم محاضرة نوبل للحرب إلى جزئين يعبران عن صياغة أوباما الجديدة للدوغما القديمة الخاصة بسطوة الولايات المتحدة فى العالم أحادى القطب، وآرائه إزائها، هذا على الرغم من أن خطاب أوباما يبدو منعشا بعد خطابات الحرب الإمبريالية للإدارة السابقة وإدعائها للقوامة الأخلاقية. أدار أوباما حملته الانتخابية على أساس أفكار جوزيف ناى عن استخدام «القوة الناعمة» التى ستتحول فى النهاية، وكما سنرى إلى «القوة الذكية». كان ناى قد ظل لعقود بين القيادات الثقافية

بالحزب الديموقراطى وكان عظيم الأثر فى تشكيل الأفكار النيوليبرالية التى تبنتها إدارة كلينتون. وبصفته أكبر المفكرين «الليبراليين» الأعضاء فى مجلس إدارة مجلس العلاقات الخارجية، ومركز العلاقات الدولية، فهو عملياً المهندس الأيديولوجى لرؤية الهيمنة الاقتصادية والسياسة التى تبناها الحزب الديموقراطي. يؤكد ناي، فى الكثير من أعماله، على استراتيجيات التعاون والحفز من خلال تنويعة من الإجراءات الديبلوماسية والاقتصادية والثقافية، وأحيانا، العسكرية. وفى عهد رئاسة كلينتون قام ناى بتغيير لغة القوة اللامتناسقة الصريحة التى تستخدم لاستيعاب الآخرين وإخضاعهم قائلاً إن أسلوب العصا والجزرة للقوة الصلبة أقل فعالية على المستوى الكوكبى من القوة «الناعمة» أو «الذكية». والقوة الناعمة، حسب قوله، هى «القدرة على تشكيل أفضليات الآخرين بحيث يريدون ما تريده أنت». والفكرة هنا هى أن الاستيعاب لا يحدث فقط على المستوى المادى وعلى مستوى إقناع النخب السياسية فى بلد ما، بل الأحرى أنه استيعاب بلد ما واستمالته بحيث «يريد» شعبه ما تريده الولايات المتحدة. أعلى خطاب أوباما فى أوسلو من شأن هذا الاستيعاب وهذه الاستمالة.

أوجدت حركة أوباما بالولايات المتحدة رواية مضادة لرواية القوة الصلبة التى استخدمتها إدارة بوش، وتبدو هذه الرواية المضادة وأنها قد انتُحلت من أعمال جوزيف ناي، ومن أعمال روبرت كوهانا، المُنظِّر السياسى المؤثر، والذى كان قد شارك ناى فى تأليف عدة أعمال. انتقى أوباما مفردات «الأمل» و«التغيير» وانتحلها من الجماهير المنهكة والقرفانة بالولايات المتحدة، والشرق الأوسط أيضا، ومزجها بقضايا «الاحترام المتبادل» وتعدد الأطراف، والمؤسسات الدولية، وتشييد المؤسسات، والحوار. استثمرت لجنة نوبل الجائزة فى رواية أوباما عن «التغيير» و«الأمل» مراهنة بأن هذا الاستثمار سيشجع أوباما على الوفاء بمزاعم سحب القوات من الشرق الأوسط أو تخفيضها. إننى أرى أن أعضاء لجنة نوبل لم ينصتوا إلى كلمات أوباما ووعوده من خلال السياق الذى تقترحه أعمال ناي، هذا إلى جانب عظيم اهتمامهم

أنفسهم بقوة الغرب المهيمنة ورهانهم عليها. الأحرى أنهم سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا أسرى روايته النبوئية المنذرة وذلك لأنها أمدت كل من سئم استراتيجية بوش الوقحة للقوة الصلبة، أمدتهم بشىء بديل.

يسعى أوباما بوضوح لتمييز «الاختلافات العملياتية» بين نهج القوى الناعمة المزعوم الذى يتبناه وبين نهج القوة الصلبة لإدارة بوش. فى خطابه الاستهلالي، مدَّ يداً مفتوحة لأنظمة العالم المارقة ذات القبضات المحكمة. أما فى خطاب أوسلو، فقد تعهد بإيجاد بدائل لأساليب «القوة الصلبة» التى يحتفظ بها لمن «يخرقون القواعد».

وكما جاء بخطابه فى القاهرة وأنقرة، وخطاب انتصاره الرئاسي، وخطاب الاستهلالي، فهو يعد بإقامة إجماع، وتحالفات، وشراكات. يزعم تمسكه بـ«قانون الحب» جوهر الإنسانية وإعجابه به. بيد أنه، وحتى فيما يعظ بقيمة الحب وقيمة اللاعنف، فإن النصف الثانى من محاضرته بعيد ترسيخ حرب بوش على الإرهاب ويدعمها بصفته حاكما إمبريالياً كضرورة أخلاقية وسياسية حيث يقول إن الولايات المتحدة تخوض «حربا عادلة» وهى الآن تشن «حربا على الشر». الأهم من كل هذا هو تأكيد أوباما على أن «استخدام القوة ليس ضروريا فقط، بل إنه أيضا مبرَّر أخلاقيا».

تتجسد «الاختلافات العملياتية» بينه وبين الإدارة السابقة فى مجاز اليد المفتوحة/ القبضة المحكمة. تقدم يده المفتوحة فرصة لغواية النخب واستيعابهم، سواء كانوا أصدقاء أم معادين، ومعهم أيضا مجموعات المعارضة. لكن فاعلية القوة الناعمة تصل أقصى درجات الفاعلية حينما تُدَعم أساليب الغواية بالتهديدات وبإمكان استخدام الأساليب العقابية بما فى هذا التدخل العسكرى والمقاطعة الاقتصادية والعزل السياسى من خلال استخدام الحلفاء فى البلدان النامية، والأمم المتحدة، وثقل الولايات المتحدة الهائل فى مجال الاقتصاد الكوكبى. ولا ينبغى لأحد أن يرتاب فى أن اليد المفتوحة ستتحول إلى قبضة مُحكمة توجه إلى من يجرؤ على رفضها. وفى هذا الصدد، نجد أن خطابى أوسلو والقاهرة يرددان أصداء اللهجة الحضارتية

والأخلاقية التى اتسم بها خطاب أوباما الاستهلالى حينما أقسم موجها حديثه «إلى هؤلاء الذين يحاولون الدفع قدما بأهدافهم من خلال إثارة الرعب وممارسة الإرهاب وقتل الأبرياء، أقول إن إرادتنا أقوى مما يعتقدون ولا يمكن فلّها.. لا تستطيعون التغلب علينا أو مضاهاتنا، وسنهزمكم». من ثم، يمكن القول إن الاختلافات العملياتية فى رواية أوباما، وكما يبين بصراحة، لا تعنى أنه سيكون هناك أى تغيير فى عهده فى السياسات الاقتصادية أو المواقف والإجراءات السياسية إزاء العالم الإسلامي، أو حتى على المستوى الكوكبي. وبعد كل شيء، فقد استند خطاب أوباما فى أوسلو إلى التزامه بإعلان أن الولايات المتحدة ستقاتل المتطرفين «الذين يشوهون الدين الإسلامى العظيم ويدنسونه، والذين هاجموا بلادى من أفغانستان»، وإذا كان بوش قد أبلغ العالم أن الولايات المتحدة تشن حربا ضد الشر، فإن أوباما يؤكد لمستمعيه أن سلفه كان على صواب وأن «الشر موجود بالفعل فى العالم». وبناء على ذلك فإن «الحرب ضرورية أحيانا». ولهذا السبب، لا تستطيع الولايات المتحدة، تحت رعايته أن «تقف مكتوفة الأيدى فى مواجهة التهديدات ضد الشعب الأمريكي. ولا يجوز أن يرتاب أحد، فإن الشر موجود فى العالم ولم يكن بوسع حركة اللاعنف أن تصد جيوش هتلر». وفى خطاب يستعيد المبدأ الرومانى الإمبراطوري، يعيد أوباما تكرار ما نص عليه بالقاهرة، ويجعل من الأمن الأمريكى أمنا كوكبياً حيث لا يمكن فصل «دفاع» الولايات المتحدة عن نفسها عن دفاعها عن العالم المتحضر.

هذه الرواية هى انتحال مباشر من خطابات لويس وزكريا التى طبّعتها مقالة هنتنجتون الشهيرة. يكشف خطاب جائزة نوبل للحرب عن الدرجة التى بها تتناسج التشكيلات الأيديولوجية التى يمثلها لويس وزكريا، بإحكام، فى الروح السياسية الأمريكية وفى النموذج المعيارى العالمى للقيادات. ففيما يعد أوباما بـ «التغيير» ويتموضع كبشير بـ «الأمل»، لا تعدو تلك أن تكون مجازات يأمل من خلالها أن يستقطب الحلفاء والأعداء للانضمام إلى برنامج للسلام العالمى من خلال «الاحترام المتبادل» و«المصالح المتبادلة». وهذا هو جوهر القوة الناعمة.

وفى هذا الصدد، فإن أوباما لا يكذب. فلم يحدث أبدا أن وعد فى القاهرة أو أوسلو أو أنقرة بالانسحاب أو تقليل عدد القوات أو تلطيف التوترات العالمية أو الدخول فى حوار حقيقى غير مشروط مع الآخرين كأنداد. فى أوسلو، يؤكد للمسلمين والعالم النامى أن الولايات المتحدة تُشهِر قوتها من أجل «مصالحها الذاتية المستنيرة». يعبر تبريره «اللااعتذاري» عن «الحرب العادلة» التى تشنها أمريكا، عن مبدأ القوة اللامكبوحة، والامتيازات التى تمنحها الولايات المتحدة لنفسها خارج حدودها والتى تقوم على أساس قوامه القوة. يقول أوباما «القوة تنمو من خلال الاستخدام الحكيم، ولن نعتذر عن ذلك»، وفيما أننا لا نسعى إلى أن «تفرض الولايات المتحدة إرادتها»، فإنها تستخدم قوتها من أجل «الحرية والازدهار»، ليس فقط لأنفسنا، بل لأطفالنا وأحفادنا نحن والآخرين. يؤكد بلهجة يقينية أن لشعوب العالم الحق فى حريتهم وأحلامهم لكن «الولايات المتحدة هى التى ستظل دائما صوت تلك التطلعات العالمية الشمولية»، للمرء أن يتساءل عما إن كان الفلسطينيون، والأفغان، والعراقيون، ناهيك عن الشعوب التى تخضع لديكتاتوريات حلفاء الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وأنحاء أخرى، يوافقون على ما يُصرح به أوباما.

لا تعدو محاضرة أوباما لدى تسلمه جائزة نوبل أن تكون تناسجا مُحْكَماً لخطاب لويس الحضاراتى الأخلاقي، وتثبيتاً لقوة الولايات المتحدة يبرر الدفاع عن الحداثة بصفته مسئولية أخلاقية، وبرجماتية زكريا وأسلوبه التدرجي. خلال حملته الانتخابية كان أوباما قد عبّر عن التزامه بالبرجماتية عدة مرات، ثم دعم هذا الالتزام باختياره فى ١ ديسمبر ٢٠٠٨ لفريق جديد للأمن القومى كان له أن يتبع أجندة تقوم على أساس خطاب القوة الناعمة يواكبه استعراض للاستعداد لإكراه من يرفضون أن يكونوا متواطئين مع إمكانيات القوة الصلبة. يقول أوباما وفى إشادة منه بخدمات أعضاء الفريق فى الماضى إن «هؤلاء النساء والرجال يمثلون جميع عناصر القوة الأمريكية» وعلاوة على ذلك فهم «يشاركوننى برجماتيتى فى استخدام القوة، وحسى بالهدف بشأن دور أمريكا كقائدة للعالم». تردد ترنيمة الحرب التى تغنى بها أوباما

فى أوسلو أصداء «البرجماتية» التى كان قد أعلنها، إذ إنه يذكر الجمهور بأن على جميع الأمم «التمسك بالمعايير التى تحكم استخدام القوة» فى رده على الاعتراف بطموحات البلدان النامية ومصادر استيائها واختلافاتها، أى أنه ينبغى أن يكون صوت الولايات المتحدة الشمولى هو الوسيط للتعبير عن مظالم تلك الأمم. بيد أنه من الشائق أن أوباما أبدى استعداده للإشادة بالمعايير الدولية التى تحكم سلوك جميع الأمم المتحدة بما فيها الولايات المتحدة إذ قال إن على الجميع «اتباع أحكام الطريق» لكنه أضاف يقول «إن المعمار القديم لحفظ السلام ينهار تحت وطأة التهديدات الجديدة».

وهكذا، يحاول أوباما استقطاب العالم لمشاركة من شيدوا المعمار السابق للسلام العالمى «رؤيتهم ذاتها»، وفى إطار تلك الرؤية، يذكرنا الفائز بجائزة السلام أن «لآليات الحرب دورا تلعبه فى حفظ السلام» لا يقل عن دور المؤسسات والمعاهدات والمواثيق والإعلانات الدولية. وهذه هى الخلاصة التى تبز بها أطروحة أوباما للأمن حقوق البلدان الأصغر واستيائها وتُسقطها حيث إن جوهر أطروحته هو أنه من المسوغ لمن «لديهم مصالح ذاتية مستنيرة» التحدث باسم «مستقبل» أطفال الآخرين وأحفادهم.

ليس تفحصنا لخطابيْ أوباما بالقاهرة وأوسلو مجرد لعبة بلاغية أو تدريب أدبي، حيث إن الخطابين أرسيا أجندة للوسائل القانونية والسياسية التى تنوى الولايات التحدة اتباعها فى رسم سياستها الخارجية فى فترة ما بعد بوش. من ثم، فإنه وفقا لتلك الأحكام والأطروحات، فإن برنامج إسرائيل النووى غير القانوني، وانتهاكاتها المنهجية والمؤسسية، وحرمان الفلسطينيين من حقوقهم وإذلالهم، وخرقها لجميع قرارات مجلس الأمن، وانتهاكاتها للمواثيق الدولية، من خلال حربها على لبنان وغزة، كل هذا جميعه غير مهم ولا علاقة له بالأحكام والأطروحات. أما برنامج إيران النووى المحتمل، وما أُسمى «الإبادة العرقية» بدارفور، وبعض أعمال التمرد فى العراق وأفغانستان، فكلها تهديدات مستساغة للعالم ولـ «رؤيته المشتركة»، على الأقل وفقا لما عبر عنه رئيس الولايات المتحدة.

النقلات المعيارية فى إطار إدارة الإمبراطورية:

كان ثمة كثير من الأحاديث عن إعادة تجديد مهام أعضاء الوزراء والوزارات المختلفة، والتى أسئ استخدامها أثناء سنوات بوش. وسع أوباما حجم مجلس الأمن القومى برئاسة الجنرال جيمس جونز، بحيث يضطلع بأدوار ومسئوليات جديدة فى السياسات الخارجية والداخلية. كان هدف هيلارى كلينتون استعادة مصداقية وزارة الخارجية بعد أن كان رمسفلد قد همشها بحيث أصبحت مجرد واجهة للسياسات المنبثقة من العقول المظلمة المريبة لشلته المدنية من المحافظين الجدد الذين عاثوا فى وزارة الدفاع فسادا دونما كوابح. أرادت الوزيرة الجديدة تضخيم دور وزارة الخارجية وميزانيتها ليس فقط بحيث تكتسب ثقلا أكبر فى الشئون المتعلقة بالأمن القومي، بل أيضا لتتأكد من أن نفوذ وزارة الخارجية يترك أثره على الاقتصادات الدولية. أما جون بايدن فقد تحمل مهام إصلاح «إبعادية» منصب نائب الرئيس التى شهدت جموحا فى عهد تشيني، مع إضفاء الصبغة المؤسسية على دور مؤثر وراسخ لمنصبه فى مجال صناعة السياسة الاقتصادية والمحلية والخارجية. ان العامل المشترك فى إعادة تحديد المهام تلك، وإلى جانب التسابق على المناصب والسلطة، هو إشراك المستشارين والمسئولين الذين تولوا مناصب «مفتاح» فى مجلس الأمن القومى والعاملين فى مكاتب كلينتون وبايدن الشخصية، إشراكهم فى تصنيع فاعلية المسار الأيديولوجى لقوة الولايات المتحدة فى عصر ما بعد بوش. أى أن الكثيرين من مستشارى أوباما للأمن القومى كانوا فى طور الحضانة والإعداد والتطوير أثناء الانهيار التدريجى لفترة رئاسة بوش الثانية. ومثلما فرّخ «مشروع القرن الأمريكي» الجديد برنامج المحافظين الجدد للقوة الصلبة و«أجندة الحرية»، أمدَّ بروكينجز إنستيتيوت ومركز التقدم الأمريكى منظرى «القوة الذكية» بمنتدى يصيغون من خلاله ورقة عملهم والمانيفستو الخاص بهم. من ثم فإن النقلة فى النماذج المعيارية التى بدا أوباما وأن يُكبلها لم تنجم عن عبقريته الخاصة بقدر ما كانت نتاج مجموعة مركزية من شباب الأكاديميين، والمسئولين السابقين عن السياسة الخارجية فى إدارة

كلينتون والذين قاموا بإعادة تأطير أفكار نأى عن القوة الناعمة «والذكية» ليجعلوا منها وسائل برجماتية لإصلاح وزارة الخارجية وإعادة هيكلتها من أجل الإدارة الفطنة لقيادة الولايات المتحدة التى لا نظير لها للكوكب.

مبادرة فينكس:

فى عام ٢٠٠٨، أصدرت «مبادرة فينكس Phoenix Intiative» تقريرا بعنوان «القيادة الاستراتيجية: إطار لاستراتيجية الأمن القومى فى القرن الحادى والعشرين». هذه المبادرة هى تجمّع لمُمتهنى الأمن القومى الذين اجتمعوا معا للمرة الأولى فى عام ٢٠٠٥، وتقريرهم مثير للاهتمام لأسباب عديدة، كما أنه يستبق جوهر «النقلة» – التى حدثت فى فترة ما بعد بوش. يشمل كُتّاب التقرير المجموعة سابقة الذكر من مستشارى أوباما وبايدن وكلينتون، وبخاصة أنطونى بلينكن مستشار بايدن للأمن القومي، وچيمس ستاينبرج، نائب وزير الخارجية، وآن – مارى سلوتر التى يبدو تأثيرها لافتا فى التقرير ولأسباب وجيهة: كانت سلوتر عميدة كلية وودرو ويلسون بجامعة برينستون، وتعمل حاليا مديرة تخطيط السياسة لكلينتون، وهى منظّرة وأكاديمية فى مجال السياسة الخارجية والقوة الأمريكية. وعلى الرغم من مماحكاتها «الليبرالية» فقد دعمت سلوتر غزو العراق واستخدام المحاكم العسكرية فى جوانتنامو. وفى التمهيد للتقرير الذى كتبته سوزان رايس، العضوة السابقة بالمبادرة، تعترف دونما قصد بإسهام سلوتر فى التقرير، هذا على الرغم من وجود تعارضات طفيفة بينه وبين مواقفها الصقورية المتطرفة كسفيرة للولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة. تقول رايس إن التقرير «طوّر مفهوما مختلفا للقيادة الأمريكية يمثل قطيعة مع المفاهيم التقليدية من أمثال الاحتواء والاشتباك والتضخيم ويرفض الثنائيات المعيارية لسياسات القوة الواقعية مقابل المثالية الليبرالية».

يعرض التقرير مقترحات بدت أثناء سنوات بوش عقلانية ومنطقية. يتحدث التقرير عن تخفيض عدد القوات بالعراق وسحبها فى النهاية، وإغلاق جوانتنامو، و«الاشتباك فى حوار مع الأعداء» وتقليص الفقر، والتنمية وأيضا تقوية العلاقات مع الأصدقاء،

وتطوير شراكات جديدة، وتشكيل تحالفات من أجل حل قضايا انتشار السلاح النووي، وقضايا الأمن الكوكبى والتغير المناخي. يؤكد التقرير على أن إشهار القوة الأمريكية يجب أن يكون من خلال «قيادة استراتيجية، تستند بقوة إلى فن إدارة شئون الدولة كبديل للقوة العسكرية وكمكمل لها».

وفى هذا الصدد، بالإمكان رؤية تأثير مبادرة فينكس بوضوح على خطابيْ أوباما فى القاهرة وأوسلو. جمّع المثقفون والمفكرون السياسيون الذين شاركوا فى التقرير «صندوق عدة» متنوعة ذات أطراف مُستدقة متعددة تستخدمها «القيادة الأمريكية». يزعم التقرير أن «الإدارة الناجزة لشئون الدولة» هو مفتاح «تعزيز الرخاء» بالداخل والخارج، رخاء يتوقف على العولمة الاقتصادية المستمرة وأيضا «نظرة موسعة إلى الديمقراطية. تشمل تطوير مختلف البلدان للمؤسسات السياسية مثل الإعلام المستقل، والنظام القضائى المستقل، وتنظيمات المجتمع المدنى النشيطة، ونظام حزبى تنافسي». تعبر خطابات أوباما عن تعقيد الاستراتيجية الجديدة للقيادة فى عصر ما بعد بوش، وتستخدم لغة تقرير فينكس وتأخذ «فى الحسبان جميع أبعاد الأمن القومى – الاقتصادية والاجتماعية ومعها السياسية والعسكرية».

بتعبير آخر، تتناسج فى التقرير العسكرة واستخدام القوة العسكرية مع الاحتياجات الإنسانية والسياسية والبيئية للنظام العالمى الذى ينبغى على الولايات المتحدة أن تقوده. وفى النهاية يقوم التقرير بإحكام وإيجاز، بإدماج رؤية جوزيف ناى للقوة «الذكية»، ونيوليبرالية روبرت كوهانا، والتوليفة العملياتية السياسية لسلوتر وچيمس ستاينبرج وينتهى إلى أن «الاختبار الإجمالى للقيادة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط هو المساعدة على نقل الدينامية من حالة كونها دينامية صراعات تدميرية تُشعِل بعضها إلى دينامية بناءة للتقدم فى مجموعة من القضايا تدعم التقدم فى باقى القضايا».

تبدو استراتيجية القوة الذكية لمبادرة فينكس وأنها تحاول الخروج من إطار النماذج المعيارية الحضاراتية والأخلاقية التى طرحها برنادرد لويس ونفذها حرفياً

وبإخلاص المحاربون الصليبيون فى إدارة بوش. وبدلا من «نحن بالتقابل مع هم»، يُجمّع التقرير معاً «ثلاثة أنماط من اللاعبين داخل إطار الشبكات الإرهابية» ويميزهم عن بعضهم إذ إنه «ينبغى على سياسة الأمن القومى أن تعزل وتستهدف المنفذين الذين يخططون الأعمال الإرهابية ويرتكبونها؛ والمتواطئين من الدول وغير الدول الذين يمدونهم بالعون المالى واللوجستى وخلافه، والمتعاطفين الذين لهم ارتباطات ما بقضية الإرهابيين لكنهم لا يشاركون مباشرة». هذه المقولة دالة إذا أخذنا فى الاعتبار أن هذا التمييز التحليلى أتى به إلى إدارة أوباما الكثيرون من كتبة التقرير الذين يتولون الآن مناصب فى هذه الإدارة، أى أن مبادرة فينكس صنعت نقلة فى النماذج المعيارية من دون أى تحوّل أيديولوجي، حيث إنهم حددوا «الاختلافات العملياتية» التى ينبغى أن تميز عهد أوباما عن سلفه، وتلاعبوا بالأساليب والسياسات بهدف تحقيق الغايات ذاتها، أى هيمنة الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية. مثلا، ثمة اعتراف بأن عملية اجتياح العراق كانت «حربا خاطئة» هذا على الرغم من القول بأن «ثمة حروباً ينبغى علينا أن نخوضها». وفيما يذكر التقرير «تخفيض التواجد العسكرى بالعراق وزيادة النشاط الديبلوماسي» فإن ثمة تغافلاً بيّناً عن احتلال أفغانستان. من ثم، نجد أن المفكرين وصناع السياسة المشاركين فى تقرير فينكس يسعون إلى إعادة توجيه مسار لغة «القوة الإمبريالية، وصلافتها وتكتيكاتها باتجاه إدارة المتغيرات العديدة فى اقتصاد قوة ورأسمال معولم ومتعدد المراكز بدلا من التحكم المباشر.

يبين رون ساسكيند فى مقال له بعنوان «عقيدة جورج دبليو بوش ويقينه ورئاسته» نشره بتاريخ ١٤ أكتوبر ٢٠٠٤ بمجلة النيويورك تايمز، أن إدارة بوش كانت تؤمن بأننا «حينما نفعل فنحن نخلق واقعنا الخاص». يناقض «تقرير القيادة الاستراتيجية» هذا المبدأ ويأتى براوية يمكن أن تنطلى على الأصدقاء، و«الأصدقاء المحتملين» بل وحتى الأعداء، حيث تقدم استراتيجية تزيد من عدد حملة الأسهم فى النظام العالمى المهيمن، وبخاصة من العالم الإسلامي. تردد رؤية مبادرة فينكس للسياسة أصداء ألفناها فى مقترحات زكريا، حيث إنه، وفيما شعر زكريا أنه من المهم تبنى تغيير

النظام فى العراق وخلق عراق نيوليبرالى يمثل «قصة نجاح» أمام العالم الإسلامي، يدعو مفكرو تقرير فينكس الرئيس القادم إلى تقديم «بديل مقنع» للرواية المتطرفة التى تقدمها التنظيمات السياسية الإسلامية، حيث ينبغى على حكومة الولايات المتحدة تقديم «قصة إيجابية تؤكد على الميزات العديدة التى سيكتسبها الأفراد المسلمون، وبخاصة الشباب منهم، من ارتباطهم بالاقتصاد الكوكبى والمجتمع المعلوماتي».

إن شر مثل هذه القصة، ومعها الدعاية لرواية مزايا النيوليبرالية والعولمة وقيادة الولايات المتحدة للعالم تمثل على أرض الواقع سلاحا عملياتيا.

ليست اللغة الاقتصادية العقلانية للنقلة المعيارية المستعدة لفك اشتباكات المعركة الحضاراتية بل وإيجاد «فرص لتطوير علاقات محسّنة مع عناصر الإسلام السياسى الأكثر اعتدالا» ليست نوعا من الدهاء والحيلة، بل ضرورة سياسية. ومفهوم مبادرة فينكس هو هذا تحديدا، وسيلة جديدة لإيجاد «قيادة أمريكية» مقنعة، لاتصادمية إن أمكن، لاقتصاد كوكبى يتسم بانتشار القوة الاقتصادية والسياسية الموزعة على مراكز عدة. لا يهدف التقرير إلى تصحيح المظالم الاجتماعية والاقتصادية والبيئية وانعدام العدالة؛ حيث نجد وبما لا يدع مجالا للشك، أن التعقيد والكياسة والمشروعية التى تؤكد عليها استراتيجية القيادة كما وردت فى تقرير فينكس تنحصر فى «تعزيز مشروعية الأفعال والإجراءات الأمريكية وتوسع نطاق قوتنا ونفوذنا» فى ظل اقتصاد وواقع كوكبيين.

اتسم ترشح أوباما ورئاسته بأسلوب القوة الناعمة لمحاولة «جعل الآخرين يُريدون ما نريده نحن». كان خطاباه إلى العالم الإسلامى بأنقرة والقاهرة، وخطاباه إلى إيران بمناسبة عيد النيروز، كانت جميعها تحديدا محاولات للاستمالة والإقناع والتعاون. وباتباعه نصيحة سلوتر ومبادرة فينكس، خاطب أوباما، تتابعيا، جماهير المسلمين على أمل أن يصيب الخطاب الأيديولوجى للقوة الناعمة (الإنسانية المشتركة، والحقوق الشمولية، والمبادئ المشتركة.. إلخ) هدفه. وبأساليب عدة، فإن تكتيك الإقناع الذى يتبعه أوباما هو وسيلة لإبطال مراكز القوة الصلبة وممارساتها والتى أضفت عليها

الإدارة السابقة الصبغة المؤسسية وجعلتها واضحة مرئية بأسلوب أليم. بيد أن أوباما أيضا يذكّر العالم الإسلامى أنه على الرغم من الإنسانية والتاريخ الذى يشاركهما مع الغرب، والدعوة إلى تعددية الأطراف والحوار والفرص الاقتصادية والأيدى المفتوحة، فإن أساليب القوة الصلبة التى عُرِف عن الولايات المتحدة استخدامها فى العالم أحادى القطب مازالت جميعها أدوات فاعلة قابلة للحياة فى السياسة الخارجية الأمريكية. لا يعتبر هذا مناقضا للغة «القوة الناعمة» وفلسفتها، بل، وحرفياً، فإنه جزء لا يتجزأ منها، وبخاصة وفقا لرؤية المرتبطين بمجموعة فينكس.

وفى هذا الصدد، لم تكن السنوات الأولى لرئاسة أوباما تخلياً عن خطاب النقلة الجديدة فى النماذج المعيارية، أو تغييرا فى السياسة، حيث كان خطاباه فى القاهرة وأوسلو صريحين صادقين. بيد أنه ينبغى أن يُقرأ من دون الفلتر المتفائل لداعميه الذين يشعرون الآن، ويتزايد، بخيبة أمل، ليس لأن أوباما قد نكث بوعوده، بل لعدم استعدادهم هم الانتباه إلى الوعود التى قطعها على نفسه بالحفاظ على نفوذ وتواجد الولايات المتحدة فى العالم وتوسيع نطاقهما. لم تخف خطابات أوباما التى ألقاها فى العواصم الأجنبية أو خطابه الاستهلالى الحقيقة النهائية والتى تشكل الأساس التحتى لها، وهى أن اهتماماته بالأمن الكوكبي، والرخاء، وحقوق الإنسان والديموقراطية تستند إلى ضرورة تغيير الاستراتيجيات من أجل إضفاء المشروعية والمصداقية على الإمبراطورية الأمريكية وإطالة عمرها.

هيلارى كلينتون، وفريق الأمن القومي، وذكاء القوة:

ورأينا فى الفصل السابق استمرار الإسلاموفوبيا وممارساتها على مستوى الدولة والمستوى الخاص. داخلياً، أعطى أوباما الأولوية للسياسات «الأمنية» على حساب الحريات المدنية، مثلما أدى تواطؤه مع وول ستريت إلى مناصرته على حساب الاحتياجات الاجتماعية لضحايا عدم مسئولية رجال المال والأعمال. رأينا كيف أن إدارة أوباما مازالت مستمرة فى مقاضاة المشتبه فيهم باستخدام تهم مضللة مثل تقديم «الدعم المادى للإرهابيين»، وشهدنا كيف استمر فى عزل المسلمين داخل وحدات

سجن خاصة تسمى «وحدات إدارة الاتصال» وحرمانهم من الحريات الإنسانية والمدنية التى يتمتع بها السجناء الآخرون، كما رأينا أن الإف بى آى فى عهد أوباما مازال يستهدف المسلمين ويُنفذ إعداما بعيدا عن سلطة القضاء مثلما حدث فى حالة الإمام لقمان. مازال المسلمون والعرب وغيرهم من ذوى البشرة السمراء يتعرضون للتوقيف والمضايقات والتشاحنات إلى جانب أخذ بصماتهم والتقاط صورهم. وفى ظل إدارة أوباما، اتسعت قائمة الممنوعين من الطيران والتى تضم فى معظمها أشخاصا مسلمين. وعددا من المعارضين اليساريين والنشطاء والمثقفين، بحيث تم منع عدد من المواطنين من السفر بالطائرات، ووجد آخرون أنفسهم بالخارج وقد مُنعوا من العودة إلى الولايات المتحدة. نعرف أيضا أن القوات التابعة لوزارة الأمن الداخلى ومصلحة الهجرة وفرض الجمارك ICE مازالت تُغير على المهاجرين وتحتجزهم وترحلهم بذريعة الأمن القومى وكان أوباما هو من أمر بعسكرة الحدود الأمريكية المكسيكية فيما يقوم حرس الحدود بإطلاق النيران على الصبية المكسيكيين وضربهم بحصانة تامة.

نعلم أيضا أن وزارتى العدل والخزانة فى عهد أوباما مازالت تضايق وتستهدف الأفراد المسلمين والمساجد والمؤسسات الخيرية الإسلامية. مازالت وزارة العدل مستمرة فى محاكمة المشتبه فيهم وسجنهم على أساس تهم مُضللة مستخدمة المحرضين والمخبرين، وتطبيق أساليب عقابية دونما سند من القانون مثل الحبس المنفرد. أيضا، استمرت الوزارة فى اتباع الإجراءات «الخاصة»، لعزل المتهمين المسجونين بناء على تهم غير محددة مثل «الدعم المادى للإرهابيين». نعلم أن المدعى العام فى عهد أوباما نجح فى زيادة القيود على حرية الكلام السياسى وحرية التجمع والارتباط حينما كسب قضية المحكمة العليا «هولدر ضد مشروع القانون الإنساني» الذى جعل التعامل أو التفاعل مع أية مجموعة تصنفها الولايات المتحدة على أنها منظمة إرهابية غير قانونى حتى لو تضمن ذلك «التدريب المباشر» لتلك المنظمات على «كيفية استخدام القانون الدولى لحل النزاعات». علاوة على ذلك استأنفت وزارة العدل فى عهد أوباما حكما بسجن لين ستوارت محامية حقوق الإنسان التى تولت الدفاع

عن كثير من مشاهير الموقوفين بمن فيهم الشيخ عمر عبدالرحمن، وحصلت من خلال الاستئناف على حكم بسجن تلك الناشطة والمحامية الحقوقية البالغة من العمر سبعين عاما لمدة عشر سنوات.

على المستوى الدولي، اتسمت قوة أوباما الناعمة بإيماءات طقوسية واستخدام لغة التبادلية، لكنها واكبتها دائما تهديدات استخدام إجراءات القوة الصلبة. وعلى الرغم من التوصل إلى اتفاقية مع إيران تم التفاوض عليها من خلال تحالف مستقل بين البرازيل وتركيا، مضت إدارة أوباما في اتباع تكتيكات القوة الصلبة ضد الجمهورية الإسلامية وضغطت من أجل إصدار إجراءات عقابية ضد إيران بسبب برنامجها النووي. وفيما أعاد أوباما تصنيف احتلال العراق بأن أطلق على القوات الأمريكية المتبقية هناك وعددها ٥٠٠٠٠ جندي مُسمى قوات «غير مقاتلة»، فقد عمد إلى مصاعدة الحرب في أفغانستان مما ضاعف من عدد القتلى من المدنيين بحيث وصل إلى مستويات غير مسبوقة. سمح الرئيس باستخدام الطائرات بدون طيار والعملاء السريين لقتل المدنيين دونما سند قانوني في الداخل الباكستاني. استمرت إدارة أوباما أيضا في شرعنة تسليم الموقوفين إلى حكومات عميلة تتولى تعذيبهم، وفي عدم محاكمة المسئولين الذين قاموا بانتهاكات فاضحة للمواثيق الدولية. تواصل إدارة أوباما أيضا سياسات الاحتجاز العشوائي والتعذيب في المواقع السوداء بأفغانستان وأنحاء أخرى وفي حرمان ضحاياها وأسرهم من اللجوء إلى الإجراءات القانونية بالولايات المتحدة. مازال الرئيس مستمرا في إجراءات الاحتجاز غير القانوني ومحاكمة «المقاتلين الأعداء» أمام محاكم عسكرية، وكان بين هؤلاء عمر خضر الذي تم احتجازه وتعذيبه وهو في الخامسة عشرة من العمر. وبخلاف بوش، فقد أضفى الرئيس الشرعية على سلطة حكومة الولايات المتحدة لاتخاذ إجراءات خارجة عن نطاق القانون في الداخل والخارج، بما في هذا تنفيذ الإعدام دونما سند قانوني ضد مواطنين أمريكيين يشتبه في تورطهم مع تنظيمات إرهابية. وبخلاف بوش أيضا أمر الرئيس أوباما بنشر قوات خاصة في ٧٥ بلدا بأسلوب سري في حربه على الإرهاب، ومعظم تلك البلاد بلاد مسلمة.

وعلى الرغم من تأثير المفكرين وصناع السياسة الذين وضعوا مبادرة فينكس، فإن التشكيلات الأيديولوجية للإسلاموفوبيا تكوّن بنية تبريرات سياسة أوباما الداخلية والخارجية تماما كما كان الحال فى عهد سلفه. وكما رأينا فى خطابه بالقاهرة، فإن خطاب القوة الناعمة الذى استخدمه مُحمَّل بلغة حضاراتية مصقولة مُبطنة بحيث تتحول «اليد المفتوحة» لسياسة أوباما إلى «قبضة محكمة» باسم القيم الشمولية والمساعدات والازدهار الكوكبي. وبما أن أوباما لم يأت إلى منصبه ولديه سجل قوى فى السياسة الخارجية، فقد استند طوال حملته، ورئاسته، كما يفعل الرؤساء، إلى هيئة العاملين معه، وإلى فريق الأمن القومي، من أجل تشكيل استراتيجيات سياسية، وتكتيكات عملية تتناغم مع خطابه الخاص عن القوة الناعمة.

ومن أجل إيجاد توازن بين وضع الإجماع الذى توصل إليه واضعو مبادرة فينكس، والذين أصبحوا مرءوسين أساسيين فى مجال السياسة الخارجية بإدارته، نجد أن سياسة أوباما فى الشرق الأوسط يشرف على وضعها مجموعة متنوعة. يتألف فريق الأمن القومى ومستشاروه من مجموعة تتراوح بين جون برنان والجنرال جيمس جونز، ودنيس روس مسئول إيباك السابق ومبعوث كلينتون إلى الشرق الأوسط، ورام إيمانويل الذى كان قد سبق له حمل الجنسية الإسرائيلية الأمريكية المزدوجة. علاوة على ذلك، يضم بيت أوباما البيت رئاستين قويتين للسياسة الخارجية تتنافسان على الهيمنة هما نائب الرئيس ووزيرة الخارجية.

توازن هيلارى كلينتون، وزيرة الخارجية، بين «القيادة الاستراتيجية» كما جاءت بمبادرة فينكس، وبين خطاب «القوة الناعمة» للرئيس مطعما باستخدام إرادى للمفردات الحضاراتية التى كانت قد أبقت عليها آمنة بمقعدها بمجلس الشيوخ والتى جعلت منها مرشحة محتملة للرئاسة. أحيانا تعمد كلينتون إلى التخفيف من الرواية الحضاراتية لكن، حينما يتعلق الأمر بقضايا الأمن والإرهاب «الإسلامي» تطغى هذه اللغة على خطابها. مثلا، بعد التفجيرات الدموية فى مترو موسكو التى نفذها الانفصاليون الداغستانيون فى ٣١ ديسمبر ٢٠٠٩، تعهدت كلينتون قائلة «إننا

نحارب نفس الأعداء، هؤلاء الذين يريدون إدارة عقارب ساعة الحضارة إلى الوراء».
لا تذكر أى بلد غير غربى يخوض المعركة بل تقول تحديدا إن المتطرفين الإسلاميين يقفون «ضد أوربا، والأمريكيين، والروس، والكنديين». وعلى الرغم من كل حديثها أثناء ترشحها للرئاسة عن النقاشات الثنائية، والمؤتمرات الإقليمية والمحادثات المباشرة، وبناء الإجماع، فقد ظلت هيلارى كلينتون على الدوام من الصقور إزاء الشرق الأوسط. كانت، قبل أن تصبح وزيرة للخارجية قد صوتت لصالح غزو أفغانستان والعراق، وكذلك لصالح قانون باترويت ولصالح تجديده فى عام ٢٠٠٦. بيد أن الأكثر سوء سمعة من كل هذا، هو أنها أقسمت أثناء الانتخابات الأولية لاختيار الحزب الديموقراطى مرشحة للرئاسة، على «أن تمحوهم من الوجود تماما» إذا هاجمت إيران إسرائيل بالسلاح النووى الذى لم تنتجه، وفى متابعة لهذا أصرت على أنها تريد من الإيرانيين أن يعلموا أننى «إذا أصبحت رئيسة سوف أهاجم إيران (إن هى هاجمت إسرائيل)».

لا يجوز لمثل هذه الأقوال أن تثير الدهشة فقد ظلت هيلارى على مدى عقود داعمة متشددة لإسرائيل بما فى هذا دفاعها المُقوَّه عن جدار الفصل العنصرى الذى أقامته إسرائيل، هذا علاوة على تهليلها للإسرائيليين وتشجعيها لهم أثناء تدميرهم الوحشى للبنان، حيث إنه، وفيما كانت كونداليزا رايس، وزيرة الخارجية آنذاك تتحدث عن قصف المدنيين اللبنانيين وإراقة دمائهم بصفته «مخاض الديموقراطية والشرق الأوسط الجديد» كانت كلينتون تشارك فى تظاهرة تؤيد الاجتياح الإسرائيلى وتقول إن على الولايات المتحدة أن تُظهر «دعمها لإسرائيل وتضامنها معها لأنها تمثل القيم الأمريكية والإسرائيلية معا». ثم مضت تضيف بعاطفة جديرة بدايفيد هورويتز إن عنف إسرائيل ضرورى من أجل «البعث برسالة إلى حماس وحزب الله، وأيضا إلى السوريين والإيرانيين» حيث إن تلك الأنظمة ومعها المتطرفون الإسلاميون «شموليون: «إنهم الشموليون الجدد للقرن الحادى والعشرين».

ولكن، وكوزيرة للخارجية، اضطلعت كلينتون بدور البوق لسياسة أوباما الخارجية والإمبراطورية الأمريكية. وكما رأينا أعلاه، فقد قام أوباما كرئيس منتخب بتعيين «فريق الأمن القومي» بحيث يمثل استراتيجية الولايات المتحدة الجديدة كقوة عالمية. وبعد مقدمة أوباما، عرضت كلينتون بإيجاز وإحكام للقوة الأمريكية قائلة:

«إن الشعب الأمريكى بانتخابه باراك أوباما رئيسا قادما للولايات المتحدة قد طالبوا، ليس فقط بتوجه جديد بالداخل، بل بجهد جديد لتحديد وضع أمريكا فى العالم كقوة للتغيير الإيجابي. نعلم أنه لا يمكن حماية أمننا وقيمنا ومصالحنا من خلال القوة وحدها، أو، حقا، بواسطة الأمريكيين وحدهم. علينا اتباع ديبلوماسية نشطة باستخدام جميع ما يمكن حشده من أدوات من أجل بناء مستقبل مع شركاء أكثر وأعداء أقل، فرص أكثر وأخطار أقل لجميع من يسعون إلى الحرية والسلام والازدهار».

تعتبر كلمات كلينتون وزيرة الخارجية مقدمة لوضعها القيادى فى سياسة أوباما الخارجية، وتعريفا بموقف وزارة الخارجية الاستراتيجى الجديد من «القوة الذكية». تعلمت كلينتون خلال سنوات طويلة من الاختلاط باليمين الأكثر تطرفا انتحال استراتيجيات «القوة الناعمة» ولغتها واستخدامها خارج مجالات المحافظين الجدد، أى أن أوباما وكلينتون تحاشيا تسمية «القوة الناعمة» باسمها الأصلى عن إدراك وحرص. توضح كلينتون فى سيرتها الذاتية، ودونما لبس، أنها مدركة تماما أن تدابير المنظرين اليمينيين من أمثال رويرت كيجان، والذين أطّروا النقاشات حول قوة الولايات المتحدة بعد ٢٠٠١ على أنها قضية للقوة مقابل الضعف. من ثم، فقد نصت بوضوح قائلة «علينا أن نستخدم ما يُطلق عليه القوة الذكية: المدى الكامل من الآليات الموجودة تحت تصرفنا – الديبلوماسية والاقتصادية والعسكرية والقانونية والثقافية – ونختار الآلية الصحيحة، أو مجموعة منها، وفقا لكل وضع». توضح الصفحة الإلكترونية لمكتب كلينتون للشئون العامة الخطوط العريضة للوسائل والتكتيكات التى من خلالها تأمل إدارة أوباما تنفيذ أجندتها. وفى واقع الأمر فإن لغة «القوة الذكية» تبدو منعشة

للنخب العالمية حيث إنها تتحدث عن «الإنسانية المشتركة» للأعداء، و«تتطلب محاولة الوصول إلى الأصدقاء والأعداء معا والتواصل معهم وتنشيط التحالفات القديمة وتصنيع أخرى جديدة». ومن هذا المنطلق فإن القوة الذكية وسيلة ماكرة لنشر مظهر القوة وليس نشر القوة ذاتها وتوزيعها؛ إنها تنشر المصادر الصارخة للقوة التي تشع من المراكز الإمبريالية لرأس المال والتحكم، أي تنشر المسئولية واستحقاق اللوم بعيدا عن الأقوياء وتوزعها بين حلفائهم الأكثر ضعفا، ومن ثم، نرى أن الحس بالتضمين هو الجوهر الفلسفي للانتفاء والاستيعاب، ويعد جوهريا في رؤية أوباما الإمبريالية، إنه الوسيلة الديبلوماسية لجعل الآخرين «يريدون ما نريده نحن».

وبعد تسمية كلينتون وزيرة للخارجية، أشاد الكثيرون في الصحافة باستراتيجية القوة الذكية و«البرجماتية المبدئية»، وواقعيا مزجت هذه الاستراتيجية «برجماتية» زكريا، مع «مثالية» لويس التي تستخدم «القيم الشمولية» مرشدا إلى «التغيير الإيجابي في العالم». بصياغة أخري، كانت روايتها مزيجا يغلب عليه مبادرة فينكس، مع عتاد (هاردوير) مُحسّن ولغة واضحة محددة كتجهيزات للقوة الصلبة. وفيما أبقت وزيرة الخارجية على إمكانية توجيه الضربات العسكرية المهلكة خيارا حاضرا لا يتم التحدث عنه، كما ظل دائما، فقد مضت تستدعي آليات الإدارة الإمبريالية ووسائلها والتي لم تتوقف هي وأوباما عن تكرارها طوال توليهما مناصبهما، أي «البرجماتية»، «الفضائل والمبادئ الأمريكية»، «تعددية الأطراف»، «الشراكة» و«المؤسساتية» أو إقامة مؤسسات دولية وداخلية ودعمها والتحكم فيها. وإذا لم تكن هذه الشراكة والمؤسساتية ممكنة، تتوجه الولايات المتحدة نحو دعم التنظيمات الجماهيرية القاعدية، والنشطاء والتنظيمات غير الحكومية أي المنظمات المحلية وبرامج التدريب والإعلام المستقل. لا تذكر كلينتون أبدا مستشاريها أو الفريق الذي لعب الدور المفتاح في مبادرة فينكس، لكنها تورد مقترحاتهم بإسهاب، وتقول إنه وبدلا من استخدام الولايات المتحدة قوة الدولة والتحدث عن ذلك بصراحة، فعليها أن تنمي مجموعات معارضة داخل الدول المارقة وتستوعبهم وتتودد إليهم من أجل المستقبل، و/أو تعمل على إثارة الضغوط

الداخلية. تذكر كلينتون أن تلك الاستراتيجية حكيمة (رغم أنها إمبريالية، وهذا ما لا تذكره)، وتستشهد بشاعر قديم لتوضح أن القوة الذكية والنزوع إلى الإقناع ليست أفكارا راديكالية، وأن الرومان كانوا من داعمي استخدام القوة والإقناع.

ما يميز زمن العولمة الذي بدأ مع بيل كلينتون هو أن آليات الاستيعاب والضغط والإقناع «طويلة» المدى ومرتبطة بـ «التنمية» في المجتمعات المتخلفة واقتصاداتها وثقافاتها، وتغييرها وإدماجها في الاقتصاد الكوكبي. تستخدم كلينتون، بما لا يختلف كثيرا عن الرومان، القوة الذكية لربط الديموقراطية وحقوق الإنسان بالسياسات النيوليبرالية، تحت غطاء «التنمية الاقتصادية». ليست حقوق الإنسان والأجندات السياسية بدرجة التصدع التي كانت عليه في زمن بوش، بل هي مرتبطة في خطاب القوة الذكية بوضوح بأسلوب لا ينفصم عراه بأجندة سياسية أكثر شمولا. تذكر كلينتون هذا تحديدا في خطاب سياسي مبكر لها بجامعة جورج تاون حيث تقول «ليست حقوق الإنسان والديموقراطية والتنمية أهدافا ثلاثة منفصلة بأجندات ثلاث منفصلة». بصياغة أخري، فإن الأجندة التكاملية الكلية، بحسب رؤية أوباما، الخاصة بالتواجد الكوكبي للولايات المتحدة، هي أجندة ليس بها مساحة للمعونات الإنسانية أو مناصرة حقوق الإنسان بأسلوب غير متصل بالأجندة السياسية. من ثم فإن «تبني المستويات الأساسية لخير الشعوب - الطعام، المأوي، الرعاية الصحية، والتعليم - والصالح العام المشترك - مثل الحفاظ على البيئة والحماية من الأمراض الوبائية وتوفير احتياجات اللاجئين»، ليست من مسئوليات الولايات المتحدة المباشرة، بل هي مهمة الحكومات الديموقراطية التي تديرها الولايات المتحدة بواسطة «أدواتها وتكتيكاتها المرنة». ثم تمضي كلينتون لتقول إن واشنطون ستساعد تلك البلاد والتي تربطنا بها شراكة «كي تستطيع الحصول على السلطة والوصول إلى التقدم الذي ترغبه، أما تلك الحكومات غير المستعدة لإحداث التغييرات التي يستحقها مواطنوها، فينبغي علينا الضغط بقوة على قادتها لإنهاء القمع».

وكما رأينا في خطاب كلينتون بجورج تاون، فإن عقيدة «البرجماتية المبدئية»

مغلفة بطبقة براقة من الاهتمام بحقوق الإنسان، والحريات للجميع، والأهم، بتبنيها لقضايا النساء وبخاصة فى العالم الإسلامي. ظلت كلينتون لفترة من الوقت من القيادات المناصرة لاستخدام قوة الولايات المتحدة العسكرية لتحرير النساء من قمع الذكور ذوى البشرة السمراء. وكوزيرة للخارجية فى عهد أوباما، لم تكتف كلينتون بالوعد بعدم التخلى عن النساء الأفغانيات، لكنها كانت أحد أكثر المشجعين المفوهين لاستخدام شجاعة جنود الولايات المتحدة وحلفائها لإعادة الأمل إلى كثير من النساء والعائلات فى أنحاء أفغانستان. وقد رأينا كيفية انتقاء قضية حقوق النساء واستخدامها لتصنيع الموافقة على استعمال سياسة خارجية تدخلية سواء كانت السياسات القائمة على أساس التدخل العسكرى أو «الإقناع». وتلك مسألة، بالنسبة لإدارة أوباما، دالة على النهج التكاملى الكلى لإشهار القوة السياسية على مستوى الكوكب. ومما لا شك فيه فبإمكان المرء أن يرى كيف تمثل مجموعات الأمن القومى التابعة لأوباما وكلينتون وبايدن التوترات الدقيقة التى لا تكاد تلاحظ حتى داخل إطار القوة الناعمة أو الذكية، حيث إن هؤلاء المستشارين والديبلوماسيين والمسئولين هم تنويعه من «البرجماتيين» من الصهاينة والحزب الديموقراطي، والذين لدى الكثير منهم علاقات منذ وقت طويل مع المجالس المعيارية المؤثرة، ومراكز الأبحاث والدراسات والتنظيمات «الليبرالية» مثل مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، ومجلس العلاقات الخارجية، ومعهد بروكينجز. يتضمن المستشارون والمسئولون الدائمون والمؤقتون جميع منظرى الحزب الديموقراطى لقوة الولايات المتحدة الأحادية مثل دنيس روس، ومارتن إنديك، وبروس ريدل، وجيمس ستاينبرج، وأن مارى سلوتر، وريتشارد هولبروك، وأنطونى لايك، وسوزان رايس.

أوباما ينتصل من الإسلام:

أثناء الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٨، اجتمع التلاقى الأيديولوجى بين عنصرية أمريكا البيضاء ضد السود وكراهية التيار السائد للمسلمين ليشكلا حملة دعائية قوية مضادة للمرشح الرئيسى عن الحزب الديموقراطي. كان استطلاع جالوب قد بين

أن ثمة انطباعا مؤيدا لأوباما فى العالم العربى والبلاد الإسلامية الأخري. أضافت علاقة أوباما برشيد خالدى والمزاعم بأن حماس تدعم ترشحه مزيدا من الوقود الذى زاد إشعال تمثيلات أوباما، مرشح الحزب الديموقراطي، بوصفه إرهابيا، ومتعاطفا مع الإرهابيين، ومسلما فى السر، ومرشحا مناصرا للفلسطينيين وكارها لليهود. فسر الصهاينة الأمريكيون من أمثال مايكل أورينز، الذى أصبح فيما بعد سفيرا لإسرائيل فى الولايات المتحدة، طريق أوباما للسلام فى الشرق الأوسط على أنه «الطريق إلى بغداد وطهران الذى يمر من خلال بيت لحم ونابلس».

فى وقت مبكر من عام ٢٠٠٨، أشاع كنث لامب، وهو قرصان مدوّن تافه، أن أوباما عربى بنسبة ٤٣,٧٥٪، وأنه لم يكتف فقط بفبركة جنسيته، بل أيضا قام بفبركة جذوره الأفروأمريكية ليحصل على أصوات السود، وأنه كعربى استغل فترة عضويته القصيرة بمجلس الشيوخ ليجمع حوله شلة سرية من «أثرياء العرب المعادين لإسرائيل» الذين يحتلون مناصب مرموقة. فى مقال لها بدورية كونسيرڤاتيف ڤويس (صوت المحافظين) قبل شهر من انعقاد المؤتمر القومى للحزب الديموقراطي، كتبت ليندا كوان تقول «فكروا فقط فى الإمكانيات التى ستتاح له لتجميع محتالى العالم وأشراره وإرهابييه معاً فى بيتنا الأبيض». عملت جيوش جرارة من المدونين اليمينيين المرتزقة من أمثال دانييل پايپس وپاميلا جِلر ودبى شلوسل بمرافقة حشد من متحدثى القنوات الفضائية على التأكد أن مثل تلك الأحاديث العبثية، تجد آذانا خصبة مصغية فى أوساط المحافظين وصفوفهم لتشويه سمعة أوباما. عبّر المتظاهرون المؤيدون لماكين، وهم يحملون البنادق، عن خوفهم وغضبهم من أن أوباما مسلم وعربي، وأيضا عبرت مناصرةٌ لماكين متقدمة فى العمر فى اجتماع ببلدية المدينة عن ارتيابها فى أوباما لأنه عربي. تم تداول أعداد مفرطة من صور أوباما وهو يرتدى الزى الإسلامى بدرجة أن نشرت ذا نيويوركر مجازين رسماً يسخر من تلك الترهات على غلافها يصور أوباما فى زى مقاتل إسلامى يصافح الزعيم الأسود ميتشل فيما تشتعل النيران فى العلم الأمريكى وتظهر صورة بن لادن معلقة على الجدار.

أحدثت الدفاعات بأن أوباما أسود، وأمريكى أصيل، ومسيحى ملتزم نفس الأثر

المنفر الذى أحدثه الهجوم عليه وتشويهه بصفته عربيا ومسلما. فى اجتماع البلدية ذاك، «دافع» ماكين عن أوباما قائلاً إنه ليس عربيا بل رجل عائلة ملتزماً ومواطناً.

تعتبر اتهامات أوباما بأنه عربى ومسلم التى واجهتها حملته الانتخابية ورئاسته، تحديدا، برهانا على الدرجة التى أصبح الخطاب الحضاراتى للويس وغيره من دعاة الإسلاموفوبيا متعضونا أيديولوجياً فى الثقافة السياسية الأمريكية، ومن ثم، يمكن القول إن تحاشى أوباما للخطاب الحضاراتى وتجنبه لغة «نحن مقابل هم»، هو مناورة سياسية ضرورية. وكرجل أسود كان والده مسلما، وقضى طفولته فى أكبر بلد إسلامى [إندونيسيا]، إضافة إلى أن اسمه الأوسط عربى واسم لأحد أكثر شهداء الإسلام نبلا من ثم، لا يملك باراك حسين أوباما التأكيد على الخلافات الحضاراتية الواسعة بين ثقافته المسيحية والعالم الإسلامي، وهكذا يجد من الأفضل له اللجوء إلى خطاب «إنسانيتنا المشتركة» الذى يزيغ الأبصار عن تاريخه العائلى كابن لإفريقى مسلم معادٍ للكلونيالية سُجن ستة أشهر لنضاله ضد حكم البيض.

كانت تلك النقلة إلى القوة الناعمة نقلة ذكية، وكانت أمريكا البيضاء الليبرالية تتوق للاحتفاء بتنوعها وحالة التضمين غير المقصودة بعد ثمانى سنوات من غرس الارتياب والفرقة بين أقلياتها المسلمة. بعد انتخابه، مضى الأمريكيون البيض يهنئون أنفسهم لانتخاب باراك أوباما رئيسا، إذ إنهم شعروا أنه قد تمت تبرئتهم، ليس فقط من عنصريتهم التاريخية، بل أيضا من عبء الصراع الحضاراتى والانتهاكات والأخطاء الفجة التى ارتكبت فى حق إخوانهم من الأمريكيين أثناء سنوات بوش، وأنه قد حان الوقت للنَيل من الأشرار «الحقيقيين» تلك المجموعة الصغيرة من الإرهابيين الذين يبذرون استياء المسلمين والمسيحيين من بعضهم ويبغضون كل «ما نمثله». وبحلول موعد تنصيبه رئيسا، أسهب المعلقون من أمثال كريس ماثيوز فى الحديث عن كيف أن العالم الإسلامى لابد وأن يشعر بالسعادة حينما يعلن اسم الرئيس كاملا: باراك حسين أوباما، لدى أدائه القسم. بيد أنه وأثناء التنصيب تم الإعلان عن أوباما كالتالى «الرئيس المنتخب باراك إيتش. أوباما» مع حذف لفظ حسين. دعمت

الغالبية الساحقة من العرب والمسلمين الأمريكيين أوباما رئيسا. بيّن تقرير قوة المهمات المسلمة الأمريكية للحقوق المدنية والانتخابات أن ٨٩٪ من المستطلعين الأمريكيين المسلمين يدعمون أوباما. وعلى موقع «المسلمين الأمريكيين لمناصرة أوباما» كانت رسالة المجموعة هى «نحن ندعم أوباما لأنه، بين أسباب أخري، يرفض سياسات الخوف، ويطالب أمتنا أن تتبنى هويتها الجماعية بحيث يكون لكل أمريكى نصيب فى نجاح ورفاه جميع الأمريكيين».

كان مصدر دعم الجالية العربية والمسلمة الأمريكية لأوباما هو حسها المطلق بالحصار الذى عانته فى ظل إدارة بوش. وعلى الرغم من هذا الدعم، حرص أوباما على التباعد عن العرب والمسلمين الأمريكيين إلا إذا كان سيفيد منهم سياسيا. مثلا، فى خطاب له أثناء حملته الانتخابية بدترويت التى يسكنها أعداد كبيرة من العرب الأمريكيين، لم يتردد فريق أوباما فى أن يطلب من امرأتين محجبتين الابتعاد، حيث كانتا تقفان خلفه، كى لا تظهر فى الصورة طوال فترة خطابه. وفيما بعد، ذكّر أوباما الجميع فى خطابه الاستهلالى قائلا: «إننا فى حرب مع شبكة بعيدة المدى من العنف والكراهية». وفى واقع الأمر، فإن المسلمين والعرب الأمريكيين – وأيا كانت درجة خداعهم لأنفسهم بالإمكانيات المبهجة لانتهاء مسى زمن بوش – لم يكونوا بحاجة لمن يذكرهم بأن أوباما ترشح على أساس حملة أمن قومى تماما مثل جون ماكين، وأن خطاب القوة الناعمة ونغمة صوته الحريرية هى فقط التى جعلت الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين أقل غضاضة. وعلى الرغم من حرص أوباما على تحاشى اللغة الحضاراتية التى كانت قد أصبحت موضة قديمة إلا أن المعايير ظلت كما هى من حيث بنيتها ولم تتغير.

وكما رأينا، فإن سبب وجود الأمن القومى ذاته يربط معا الأجزاء المعقدة المتشابكة التى تُجملها القوة الذكية (بما فى ذلك الازدهار الاقتصادي، واقتصادات السوق الحر، والحقوق الشمولية، وبناء الديموقراطية، و«إصلاح» الهجرة، والشراكة وتعددية الأطراف، والطاقة المتجددة، وإصلاح الرعاية الصحية.. إلخ). وبناء على

ذلك، يتناسج شكل مبطن من الإسلاموفوبيا فى جميع القضايا تقريبا التى تم عرضها فى الحملة المبكرة لإدارة أوباما الذى استخدم بذكاء هذه الحقيقة لمصلحته، وقدم وجها جديدا للإمبراطورية يبدو وأنه يتحاشى السياسات التصادمية الصلفة لحكم بوش الإمبريالي، ومن ناحية أخرى يؤكد لأمريكا البيضاء أنه صديق لوزارة الدفاع والأمن الداخلى ووول ستريت وصناعات الرعاية الصحية. نجده يقول فى خطابه الاستهلالى إن «الأسلوب الذى نستهلك به الطاقة يقوّى أعداءنا ويدمر البيئة». علاوة على ذلك، نجده كثيرا ما يربط بين الأمن القومى وبين التهديدات التى يتعرض لها من خلال المسلمين الذين يتحكمون فى النفط الذى يقوم عليه الاقتصاد الأمريكي. نجده يُعلن وقد وَجَد فى حفل تخرج بوستپوينت مناسبة ملائمة «علينا أن نطور طاقة نظيفة بحيث يمكننا الفكاك من قيود النفط الأجنبي». استُخدمت مرة أخرى خدعة الربط بين مصالح أمريكا العسكرية والدفاعية والقومية وبين تهديدات تكاد ألا تخفى قائمة على أساس الإسلاموفوبيا ومرتبطة بالنفط العربى والإيرانى حينما أعلن أوباما «التوسع فى التنقيب عن النفط والغاز بالقرب من الشواطئ الأمريكية». وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة تستورد ١٠٪ فقط من احتياجاتها النفطية من الشرق الأوسط، أى أقل مما تستورده من كندا ونيجيريا والمكسيك، إلا أن الربط العلنى المستدام بين أمن أمريكا النفطى والتهديد الذى يتعرض له من البلاد العربية يكشف أن هذا يتعلق بالإسلاموفوبيا الأمريكية بأكثر مما يتعلق باعتمادها النفطى [على الدول العربية الإسلامية]. أعيد تسمية سياسة الطاقة الفدرالية وأُطلق عليها مسمى «أمن الطاقة الأمريكي» وأعلن ذلك فى قاعدة أندروز الجوية، حيث أنهى أوباما خطابه، وفيما أبقى على تيمة «النفط الأجنبي» طوال الوقت، بأن أكد كيف ستؤدى استراتيجية الطاقة الشاملة التى يتعاون فيها القطاع العام والقطاعات الخاصة إلى ألا تصبح الولايات المتحدة «مقيدة إلى أوتاد نزوات ما يحدث فى أماكن أخرى بالشرق الأوسط أو البلدان الرئيسية الأخرى المنتجة للنفط».

يتم التعبير عن موقف الرئيس إزاء «الطاقة والبيئة» فى موقع البيت الأبيض على

الشبكة الإلكترونية حيث جاء به «يعرّض إدماننا للنفط الأجنبي ولمصادر الوقود الأحفورية اقتصادنا وأمننا القومي وبيئتنا للأخطار»، ثم يؤكد لنا أن «الرئيس يعمل مع الكونجرس، ومن أجل أخذ بلدنا في اتجاه جديد، على إصدار تشريع شامل للطاقة والمناخ يحمي أمتنا من المخاطر الاقتصادية والاستراتيجية الجادة المرتبطة باعتمادنا على النفط الأجنبي». وعلى حين أن «الاعتماد» على «النفط الأجنبي» و«إدمانه» ظلت مفاهيم تستخدم لإثارة الكراهية ضد العرب والإيقاع بهم منذ الحظر الذي فرضوه على النفط عام ١٩٧٣، فإن استدعاء أوباما للاعتماد على «النفط» الأجنبي مثقل بالمعاني والأهداف. فعلى حين أنه رئيس في زمن الحرب وقائد أعلى للقوات المسلحة التي احتلت ثاني أكبر بلد منتج للنفط، نجد أنه بحاجة إلى أن ينأى بنفسه عن سلفه وعن «الحرب من أجل النفط» التي شنها، إذ إن بالإمكان جعل مسألة اعتماد الولايات المتحدة على الطاقة من مصادر أجنبية قضية أمن قومي من خلال تقبل التهديد الخيالي بأن الأويك ستُغْلق صنبور النفط من أجل أن تجثو الولايات المتحدة كقوة اقتصادية وسياسية على ركبتيها، أما البعابع المضمرة التي لم تذكر بالاسم فهم العرب والإيرانيون.

تستخدم «البعابع» أيضا وسيلة لاكتساب الدعم لطاقات «بديلة» كي لا تخضع الولايات المتحدة لقطعان البلدان الإسلامية ذات الثروات النفطية. يميز أوباما نفسه عن سلفه بأسلوبه المتعرج بين نزعات حربه المعلنة وبين مطالب أمريكا الوسطي، ويعتبر مثال المهاجرين الذين لا يحملون وثائق دالا فيما يتعلق بالإسلاموفوبيا. نرى أوباما، من جهة، يأخذ موقفا ضد تشريعات ولاية أريزونا المعادية للاتينيين وللمهاجرين، ومن جهة أخرى، نجده يوبّخ المهاجرين «غير القانونيين» ويعمل على عسكرة الحدود كي يُرضي الأمريكيين البيض. وكما في حالة المسجد المزمع إقامته على مقربة من موقع أحداث ٩/١١ «Ground Zero Mosque» فإن إصرار الرئيس المتواصل على وقف إدمان أمريكا للنفط شرق الأوسطي والفنزويلي يستخدم لحشد مشاعر جماهير أمريكا الوسطي، حيث يطمئن الرئيس أمريكا البيضاء على أنه

يشاركهم مشاعر الاستياء من السماح لذوى البشرة السمراء، سواء كانوا مسلمين، أو فنزويليين كاثوليك، بالتحكم وامتلاك موارد هى من حق الأمريكيين، وذلك لأنها موارد تعمل بها الإمبراطورية الأمريكية.

إنها إسرائيل أيها الغبى:

كان ترشح أوباما ورئاسته حملة قُصد بها تحديدا ضمان الثروة والقوة والنظام الرأسمالى المعولم الذى تتحكم فيه البنوك، وكبرى الكوربوريشنات والرأسمال النقدي، وليس الناس والأفراد. أمدّ خطاب القوة الناعمة الذى استخدمه أوباما تيار الولايات المتحدة السائد بمنطقة مريحة يعيد فيها التأقلم مع عنف قوتهم الكوكبية كما مارسها المحافظون الجدد بفجاجة ووضوح. قدّم، على المستوى المحلي، رؤية إصلاحية للشركاتية الأمريكية، يصبح للجميع فيها مكان على «الطاولة». وبالمثل، مضى يلقى المحاضرات، على المستوى الدولي، عن أن القوة الأحادية ستُمارس من خلال كرم قوة إمبريالية «مستنيرة» خيّرة تعرض مشاركة «المصالح المتبادلة» بين مختلف البلدان. لكن تلك النقلة المعيارية، وعلى الرغم من أنها لم تبعد كثيرا عن نظرة زكريا، أو حتى كيسنجر للقيادة الكوكبية، أثارت قلق الذين كانوا قد قاموا بتطبيع ميكانيزمات القوة الصلبة ونجحوا فى استخدامها من أجل هندسة عالم يستوعب رؤيتهم النبوئية الخاصة.

لم تكن قضية دعم الولايات المتحدة لإسرائيل التى طفت على السطح أثناء ترشح أوباما ورئاسته، لم تكن فقط تجلياً للسياسات المصغرة على أرض الواقع بل دلالة على إعادة تشكيل أيديولوجى أوسع لرؤية قوة الولايات المتحدة. وكما رأينا، فقد كان أوباما قد تعرض للهجوم والتشهير من قبل لوبى «إسرائيل» والمنظمات الصهيونية ومجموعات المحافظين الجدد والإنجيليين بصفته «معاديا لإسرائيل»، واستخدام اسمه الأوسط، أى حسين، سلاحا ناجعا فى هذا التشهير. بيد أنه، وأثناء الحملة الانتخابية، لم تختلف سياسة أوباما المقترحة للشرق الأوسط كثيرا عن سياسة هيلارى كلينتون أو جو بايدن. فى المراحل التمهيدية المبكرة، عملت منظومة مشتركة

من صغار مستشارى الرئيس كلينتون فى فريق الأمن القومى لهيلارى كلينتون وأوباما معا، وكان كثيرون من هؤلاء قد شاركوا فى إعداد مبادرة فينكس منذ عام ٢٠٠٥. وفيما انشغلت هيلارى بإبعاد نفسها عن المصادقة على غزو العراق، وعد أوباما بتقليل حجم التواجد العسكرى هناك (وليس الانسحاب) مع مضاعفة الجهد العسكرى فى أفغانستان ومعه عدد القوات. أما سياسته فى الشرق الأوسط فلم تتعد القبول بالمبادئ التى أرستها اتفاقيات أوسلو فى العقد السابق. بيد أن مجرد فكرة احتمال توسطه فى مباحثات السلام التى كانت قد تفسخت أثناء رئاسة بوش، كانت إشارة كافية لصهاينة اليمين الأمريكى بأن أوباما قد يُجبر إسرائيل على احترام التزاماتها بحل الدولتين، لكن أوباما كان حريصا على تهدئة مخاوف ناخبيه الموالين لإسرائيل (أى الحزب الديموقراطي). كذلك، لم تُبرز علاقة أوباما الوثيقة بزبنجيو برجنسكى أحد فرسان الحرب الباردة، وروبرت مالى كبير مفاوضى بيل كلينتون بكامب دايفيد، لم تُبرز فى أوساط الجماعات الموالية لإسرائيل. أبلغ أوباما مُحاوِره فى حوار لمجلة ذا أطلانتيك أنه يؤمن بقوة أن إسرائيل «ديموقراطية نابضة، الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» وأن دعمه لها ولأمنها ولولاء الولايات المتحدة لها وتمسكه بالعلاقة الخاصة التي تربطها بها لا يتزعزع. أما الفلسطينيون الذين تخيلوا أن النقلة المعيارية التي تبناها أوباما تضمنت حلا منصفا عادلا للنزاع الفلسطيني الصهيوني، فقد خاطبهم أوباما مباشرة بالقول «انظروا، إنني متعاطف معكم ومع احتياجكم لأن تكون لكم دولة قابلة للحياة، لكن عليكم أن تفهموا التالي، إذا كنتم تنتظرون أن تُبقي أمريكا علي مسافة بينها وبين إسرائيل، فأنتم واهمون، ذلك لأن التزامنا، التزامنا بأمن إسرائيل، لا يقبل التفاوض أو المساومة».

قام أوباما، أثناء الحملة، بجولة في الشرق الأوسط، ضمّنها زيارة لإسرائيل تأكد من أن تلقي دعاية إعلامية واسعة، وقام خلالها بزيارة لمستعمرة سيدروت المتاخمة لغزة، والتي كانت فرصة لالتقاط كثير من الصور فيما كان ينظر إلى قذيفة من صاروخ أطلقته حماس علي المستعمرة. زار أيضا «حائط المبكي» بالقدس الشرقية

المحتلة، ومتحف الهلوكوست حيث تعهد علنا بألا يحدث ذلك مرة أخري أبدا «Never Again». لم يكتف بعقد اجتماع برئيس الوزراء وزعيم الليكود بنيامين نتنياهو، بل قضي وقتا ليس بالقصير مع اثنين من أفضل حلفائه المحتملين: إيهود باراك وتسيبي ليفني. أتت جولته في إسرائيل بعد أسابيع من الخطاب الذي ألقاه أوباما في المؤتمر السنوي لتنظيم إيباك والذي كان قد سبقه خطاب ألقته نانسي بلوسي، عضوة مجلس الشيوخ الصهيونية المتشددة. لم يكن الخطاب لافتا فقط لأن المرشح للرئاسة أكد أنه يعمل مع چون ماكين الجمهوري لدعم الدولة اليهودية أو لأن أوباما ذكر عملية السلام فيما كان يؤكد علي أن الولايات المتحدة ستظل وسيطا منحازا. ولم يكن الخطاب منفردا من حيث تكرار سيناريو «القيم المشتركة» و«المصالح المشتركة» بين إسرائيل والولايات المتحدة، أو لأنه أدمج فيه دعمه للحرب علي الإرهاب وعزل إيران واحتواء حماس ونزع سلاح حزب الله. لم يكن متفردا لأن أوباما مضي يتغني بترنيمة أن البيت الأبيض سيحافظ علي «التزامه الذي لا يتزعزع بأمن إسرائيل».

مما لا ريب فيه أن توجه المناخ السياسي كان وراء خطاب أوباما بمؤتمر إيباك والذي كان قد سبقته حملة إيميلات ودعاية بالإنترنت مضت تؤكد علي اسم أوباما الأوسط – حسين – وأصوله المسلمة وصلت إلي حدد التكرار الممل. وبما يتسم به أوباما من مرونة وانتقاد خطابي، نجده يعود إلي النقاط الرئيسية في خطابه لطمأنة جماهيره الموالية لإسرائيل، فيعمد إلي الربط بوضوح بين خطته للطاقة المتسمة بالإسلاموفوبيا وبين الأمن القومي لإسرائيل بأن يتعهد بالارتكاز علي «قانون التعاون بين إسرائيل والولايات المتحدة في مجال الطاقة لتعميق شراكتنا لتطوير مصادر بديلة لها». لكن الأكثر دلالة هو أن اعتراف أوباما بالحملة الدعائية واستجابته لها يكشف عنصرا لكراهية الذات والخجل من كنهها. من اللافت أنه لا يتجاهل تحريضات مهاجميه والمنتقصين من قدره، كما أن المرشح للرئاسة لا يواجه الإسلاموفوبيا المتعصبة – التي استُخدِمت أداة سياسية للتشهير به – والتي تربط بين اسمه المسلم وبين الإرهاب الكوكبي. بدلا من ذلك، يطمئن باراك حسين أوباما مستمعيه بإيباك إلي أنه يتفهم مخاوفهم ويقول إن تلك «الإيميلات المستفزة» مليئة:

«بوشايات وتحذيرات رهيبة من مرشح معين للرئاسة وكل ما أريد أن أقوله هو أن تبلغوني إن أنتم رأيتم ذلك الشخص المسمي باراك أوباما لأنه يبدو مخيفا. إذا كانت تلك الإيميلات قد عملت علي تشوش أي شخص فإنني أريدكم أن تعلموا أنني اليوم أتحدث من أعماق قلبي وبصفتي صديقا حقا لإسرائيل».

وفي إجابته علي التلميح بأن أوباما مسلم، يكشف المرشح دونما قصد عن كره ذاتي مكبوت لاسمه المسلم، اعترافاً برفض واعٍ خجول لأصوله الإثنية علي أساس من الإسلاموفوبيا المُستبطنة. ولو رأي البعض أن الرد لا يعكس كراهية للذات فمن المؤكد أنه ينقل بدلا من ذلك حذر أوباما من ذوي الأسماء المسلمة وارتيابه بهم.

وفي النهاية، عمل تأكيد أوباما المستدام علي أنه «صديق حقٌّ لإسرائيل» علي اكتسابه بعض أكثر المرتابين به حماسا إلي جانبه ومعهم ٧٧٪ من أصوات اليهود الأمريكيين. وبالتأكيد فقد حاز أوباما علي اهتمام أشهر الدعائيين الصهاينة بالولايات المتحدة، آلان درشوويتز وعلي دعمه المؤقت علي الأقل. وإلي جانب كون درشوويتز منُظرًا أيديولوجياً ودعائياً، إلا أنه انتهازي شهير. في إحدى مشاركاته القليلة في ميديا الإعلام الرئيس الشركاتية (باستثناء فوكس نيوز) كتب درشوويتز مقالا افتتاحيا يصادق فيه علي ترشح أوباما للرئاسة، مقالا يمنح فيه كلا من ماكين ومنافسه درجات عالية لمواقفهما المؤيدة لإسرائيل، لكنه يهدف أيضا إلي تهدئة المخاوف من أوباما بقوله إنه من بين «أقوي الداعمين لإسرائيل» وإنه في هذا يُعد نظيرا لـ «تدكيندى، وهاري ريد، ونانسي بيلوسي، وبارني فرانك، وهيلاري كلينتون وميت رومني وجورج دبليو. بوش وأورن هاتش وجون ماكين». تكشف مصادقة درشوويتز المتأخرة عن استراتيجيات الجهات الموالية لإسرائيل، حيث إنه لم يكن أبدا مناصرا مسموعا لأوباما، بل إنه كان قد قاد حملة أمل من خلالها أن يجبر أوباما علي التخلي عن برجنسكي أكثر مستشاريه في مجال السياسة الخارجية توقيرا. مما لا شك فيه أن مصادقة درشوويتز المتأخرة نجمت عن رؤيته النتيجة النهائية وقد تبدّت، هذا علي الرغم من أن تلك المصادقة الفاترة تُفصح عن المقصد الذي يكمن

وراءها، أي أنها تبين لقرائه أن الناخبين المؤيدين لإسرائيل عليهم التصويت لداعم إسرائيل الأقوي وليس بالضرورة للمرشح الأفضل بالنسبة لإسرائيل. وعلي الرغم من أن درشوويتز لم يكن أبدا منظّرا أو أكاديميا فذا، إلا أنه أوضح أنه استراتيجي بالغ المهارة يفتش عن تكتيكاته في حقيبته القديمة ويخرجها في الوقت المناسب. فبعد أن اضطلع المحافظون الجدد، بدور الحزب الديموقراطي التقليدي في تبني القضايا الموالية لإسرائيل بل وتفوقوا عليهم خطابيا وإجرائيا، أمل درشوويتز في استعادة جمهور الناخبين الليبراليين لدورهم السابق. أتاح ترشح أوباما الفرصة لقلقلة التأثير المتنامي للأكاديميين اليساريين أو لذوي الفكر السياسي في الأحزام الجامعية والأوساط الليبرالية، بل وتقويض هذا التأثير. قال درشوويتز حرفيا إن فوز أوباما «سيعزز وضع إسرائيل في أوساط الليبراليين المترددين». بصياغة أخري، إن التصويت لأوباما هو استثمار في مصداقية سياسة الولايات المتحدة وأمدها الطويلة، وتلك كانت تحديدا الرسائل التي حاول أوباما نفسه إيصالها.

لم تكن سياسة درشوويتز حينما عمل بعد ذلك علي الدفع بأجندة اليمين الأكثر تطرفا إلي إدارة أوباما ناجمة عن سوء حسابات. اتسمت السنوات الأولي من رئاسة أوباما بعدد من الأحداث المهمة علي الساحة الفلسطينية/ الإسرائيلية: حصار غزة المستمر، قصف غزة واجتياحها في ديسمبر ٢٠٠٨ وتقرير جولدستون الذي تلي ذلك، والهجوم علي أسطول الحرية، وتوسيع المستوطنات وزيادة عددها، وفشل محادثات التقارب. ظل أوباما وفياً لالتزامه بالرباط الذي لا تنفصم عراه بين الولايات المتحدة وإسرائيل. لم يختلف رد فعل إدارة أوباما علي قصف إسرائيل الإجرامي لغزة واجتياحها لها في ديسمبر ٢٠٠٨/ يناير ٢٠٠٩ كثيرا عن رد فعل إدارة بوش علي قصف إسرائيل الوحشي للبنان واجتياحها له عام ٢٠٠٦، بل جاء متطابقا مع المواقف الإمبريالية التي استمرت لعقود عديدة إزاء جرائم إسرائيل المتكررة ضد المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين، أي لوم الضحايا لأنهم استفزوا الغضب المشروع لإسرائيل الجريحة المعرضة للأخطار والتي لا خيار أمامها سوي «الدفاع» عن نفسها

وعن أمنها القومي. وكما وثّق الصحفي سيمور هيرش، قامت الولايات المتحدة بإرسال شحنة عاجلة من القنابل الحارقة لإسرائيل للحفاظ علي إمداداتها من تلك الأسلحة [المحظورة دوليا] أثناء حرب تموز علي لبنان. وبالمثل، وعلي الرغم من أن ذلك لم يلق إعلاما واسعا، أمدت الولايات المتحدة إسرائيل بتجهيزات جديدة من القنابل شديدة الانفجار والتدمير بعيد هجومها علي غزة، وعبّر مسئولون بالولايات المتحدة عن قلقهم من احتمال استخدام الإسرائيليين تلك القنابل «الذكية» الموجهة «Guided Bomb Unit-39s» ضد إيران بحيث تشعل أزمة عسكرية خطيرة في المنطقة. لكن إسرائيل وبعد أن تعلمت من فشلها في قتل السيد حسن نصر الله علي الرغم من تدميرها لضاحية بيروت الجنوبية وقري الجنوب اللبناني، استخدمت القنابل المائة الجديدة لتدمير البنية التحتية في غزة وقتل قيادات حماس. وعلي الرغم من احتجاج العالم ضد استخدام إسرائيل غير المشروع للذخائر الفوسفورية البيضاء المحرمة دوليا وقصف الأهداف المدنية واستهداف المدنيين، إلا أن إدارة أوباما التزمت الصمت بعامة فيما عدا ترديدها مقولات فارغة تحث علي «ضبط النفس» فيما تعترف بحق إسرائيل في «الدفاع عن النفس».

صادم هو دعم الولايات المتحدة لجرائم الحرب الإسرائيلية في غزة بمثل إضفاء البيت الأبيض المشروعية علي إقامة جدار الفصل العنصري والذي قضت محكمة العدل الدولية بأنه غير قانوني وبأنه انتهاك لحقوق الفلسطينيين الإنسانية، أو بمثل مصادقة إدارة أوباما علي حصار غزة اللاإنساني غير المشروع. وإذا نحينا جانبا سياسات وتفاوضات القنوات الخلفية، فقد بعثت إدارة أوباما برسالة علنية إلي حكومات إسرائيل اليمينية باستمرار البيت الأبيض في «حماية» إسرائيل ديبلوماسيا وعسكرياً. تمضي سوزان رايس مندوبة أمريكا فى الأمم المتحدة في تكرار مقولة أوباما بوضوح مرددة أن دعم الولايات المتحدة لسياسات إسرائيل «غير قابل للنقاش أو التفاوض». في البداية، حاول أوباما وقف تقرير جولدستون ثم إعاقته حينما أحيل إلي محكمة العدل الدولية، وبعد ذلك منع هو والصين وروسيا، مناقشة مجلس الأمن

له. وبالمثل، حاولت الولايات المتحدة إحباط محاولة إنشاء لجنة تقصي حقائق للتحقيق في استيلاء إسرائيل علي أسطول الحرية في ٣١ مارس ٢٠١٠ والذي نجم عنه مقتل تسعة مدنيين كان أصغرهم سنا شاب أمريكي.

تتدفق التضمينيات الكاملة لفلسفة «القوة الذكية» التي ينتهجها أوباما وهيلاري كلينتون علي مرأي من العالم وتتجسد في سياسة الولايات المتحدة الخارجية بالشرق الأوسط ودعمها لإسرائيل. تصبح إقامة التحالفات والشراكات ضرورية لمحاولة فرض هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية وتوسيع مداها. كان تشكيل «تحالف الراغبين» ضروريا لشرعية سياسات الولايات المتحدة بالعراق وأفغانستان، ولترقيع مزيد من العقوبات ضد إيران حتي فيما كانت تتفاوض علي حلول دولية سلمية مع البرازيل وتركيا للقضاء علي ما يعبر عنه الغرب من مخاوف حول إمكانية تطويرها أسلحة نووية. لكن، حينما فرغ صندوق عدة القوة الذكية دون أن يحدث النتائج المرغوبة، لجأت الولايات المتحدة إلي الوفاء بتعهد أوباما بالقاهرة بالتصرف بجسارة، وحقا، فقد أصابت نانسي بيلوسي حينما صرحت قبل اجتماعها بنانتنياهو في مارس ٢٠١٠، قائلة «إننا [أي الحزبين الديموقراطي والجمهوري] نتحدث بصوت واحد في موضوع إسرائيل».

وفي واقع الأمر فإن الكونجرس يتحدث بصوت واحد حول إسرائيل، وهذا التناغم لا يحدث بسبب التمويلات التي يتلقاها الأعضاء من إيباك، الأحري، وكما أوضح المفكرون من أمثال نعوم تشومسكي، فإن هذا الانسجام بين الحزبين هو نتيجة تناغمهما مع السياسات الكارهة للعرب والمتأصلة في الثقافة الأمريكية. حينما ازدرت إدارة نانتنياهو بصفاقة نائب رئيس الولايات المتحدة أثناء زيارته لإسرائيل في فبراير ٢٠١٠ بإعلان التوسع في إقامة المستوطنات غير الشرعية بالضفة الغربية والقدس المحتلة، لم يسائل سوي القلة في حزب بايدن الإسرائيليين وذلك لأن الولايات المتحدة توافق جوهريا علي سياسة إسرائيل التوسعية، وبالمثل فإن استخدام إسرائيل للعنف ضد العرب الفلسطينيين واللبنانيين متقبل، مثلما كان العنف الذي مارسه البيض

ضد سكان أمريكا الأصليين أثناء فترة التوسع متقبلا. ولهذا السبب، نجد بيلوسي تصرح دوما أن علي الولايات المتحدة الوقوف إلي جانب إسرائيل لدي قصفها لجيرانها العرب، إن قائمة أعضاء مجلس الشيوخ والنواب الأمريكيين الذين يتسلقون علي بعضهم كي يعلنوا دعمهم لاعتداءات إسرائيل العسكرية وانتهاكاتها لحقوق الإنسان أكثر من أن تُحصي، ولا يحتكر أي من الحزبين حماية إسرائيل. أعلن عضو الكونجرس عن الحزب الديموقراطي تشارلس شومر، وهو صهيوني متطرف لا يخفي كراهيته للعرب. أنه «حارس» لإسرائيل، ثم صرح، في أعقاب مذبحة أسطول الحرية أنه ينبغي علي الإسرائيليين والأمريكيين «خنق» الفلسطينيين حتي يستسلموا، ولم تكن تلك الكلمات المستفزة سوي تعبير عن توجهات شائعة بين المسئولين المنتخبين، سواء من الحزب الجمهوري مثل ديك آرمي الذي طالب في ٢ مايو ٢٠٠٢ بطرد الفلسطينيين من الضفة الغربية أو هاري ريد الذي بين في برنامج بإحدي الفضائيات في ٤ يناير ٢٠٠٩ أن إسرائيل كانت الضحية لغزوها لغزة، وأن هذا كان ما «نالته» علي نبلها وكرمها حينما انسحبت في عام ٢٠٠٥.

الذيل الأيديولوجي يحرك الكلب:

لا يتسع هذا الفصل لدراسة ناقدة مستوفية لسياسة أوباما والولايات المتحدة إزاء إسرائيل والشرق الأوسط، فإن مثل ذلك المشروع يتطلب كتابا مستقلا بخاصة إذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن أوباما، وإدارته، والكونجرس قد أوضحوا بما لا يدع مجالا للشك أن هدفهم الأول في الشرق الأوسط هو استمرار هيمنة الولايات المتحدة علي المنطقة بالتلازم مع دعم إسرائيل واستخدامها كحليف استراتيجي رئيسي في تحقيق هذه الهيمنة. بيد أن بؤرة هذا الكتاب، أي كيف مكنت الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي تحول السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية علي مدي العقدين الأخيرين، تسعي لإيضاح بعض جوانب «العلاقة الخاصة» بين الولايات المتحدة وإسرائيل. يُلقي المقال التحريري الذي نشره آلان درشوويتز للمصادقة علي ترشح أوباما، بأسلوب يثير الدهشة ومتعمدا في آن، يلقي الضوء علي جوانب من التخطيط

الأمريكي الصهيوني الاستراتيجي بما قد يساعد الكثيرين منا علي استيعاب الدرجة التي تبدو بها الولايات المتحدة وأنها تدعم إسرائيل بدون تفكير بدرجة قد تضر بمصداقيتها ومصالحها وأمنها ومعها الإضرار بإسرائيل أيضا كما يري البعض من أمثال ستيفن كينزر في كتابه «Reset:Iran, Turkey and America,s Future» (٢٠١٠). يصيب درشوويتز جزئيا حينما يزعم أن إسرائيل ليست قضية خلاف في الرأي بالولايات المتحدة، أو علي الأقل علي المستويين الفدرالي والتشريعي. يُقر جلن جرينوالد بمقال له بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٩ أن الهيئة التنفيذية وأعضاء الحزب الديمقراطي بالكونجرس «يسيرون بخطوات متشابكة مع الجمهوريين فيما يخص إسرائيل» وفي أسوأ الأحوال يتنافسون حول من باستطاعته أن يكون «أكثر صقورية» من الآخر فيما يعمل أيضا علي توسيع نطاق «العلاقة الخاصة التي تربط الولايات المتحدة بإسرائيل».

بيد أن علينا أن نفصل بين الصهاينة الأمريكيين وبين الإسرائيليين، وهذا ضروري ليس لأن بعض الإسرائيليين معادون للصهيونية، بل لأن الصهيونية الأمريكية جزء من منظومة أيديولوجية/ ثقافية/ سياسية منفصلة، وهنا، فإنني أذهب إلي أن اليهود الصهاينة الأمريكيين هم أمريكيون ذوو «ولاء مزدوج» بالتقابل مع الصهاينة الإسرائيليين الليبراليين أو المتشددين والذين يحملون جنسية أمريكية، حيث يشكل جوهر الهوية اليهودية للمجموعة الأولي تاريخ اليهود بالولايات المتحدة بأكثر ما تشكله التجربة التاريخية اليهودية في أوربا، أو الهلوكوست. في سياق الولايات المتحدة، فعلي حين يبدو المعسكر المناصر لإسرائيل مُوحّدا وأنه «يتحدث بصوت واحد» إلا أنه في واقع الأمر متنوع ومختلف المشارب. كثيرا ما يشكل المسيحيون الصهاينة بعض أكثر التوجهات تطرفا في إطار الحركة المناصرة لإسرائيل بالولايات المتحدة. ومع هذا، نجد أن المسيحيين الصهاينة يلعبون دورا هامشيا في أي نقاش حقيقي لموضوع إسرائيل والولايات المتحدة والشرق الأوسط، باستثناء الحقيقة ذات الأهمية الكبيرة وهي أنهم أعضاء في حركات وتنظيمات سياسية أوسع مثل حركة «المحافظين الجدد»

أو «حزب الشاي»، كما لعب المسيحيون الصهاينة من أمثال هاري ترومان وروبرت كنيدي، دورا محوريا في تصنيع العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة.

بيد أن هؤلاء هم مجرد أفراد نشطاء أقوياء لا يعكسون الثقل السياسي الضئيل لحركة مسيحية صهيونية جمعية متناغمة». تطورت أجندة اليمين الإنجيلي علي مر السنين تدريجيا من حركة محافظة معادية للسامية إلي حركة رأت أن ثمة تلاقياً في المصالح بين الحركة الصهيونية اليهودية الأمريكية وبين مصالح المحافظين الجدد. لم يحدث سوي منذ وقت قريب جدا أن كان للمسيحيين الإنجيليين الصهاينة أي إسهام يذكر في سياسات الولايات المتحدة الداخلية أو الخارجية بالشرق الأوسط. وإذا لم يكن بالإمكان تحليل تأثير المسيحيين الإنجيليين علي سياسة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط وإسرائيل سوي مقارنة بمجمل تواجدهم ضمن الطبوغرافية السياسية الأمريكية الأوسع، إذن ينبغي علينا إعادة تقييم التأثير الحقيقي للوبي إسرائيل في تشكيل التحالفات الإسرائيلية الأمريكية، وذلك لأن نفوذ «اللوبي الصهيوني» وبأساليب عدة، مبالغ فيه إلي حد كبير، هذا علي الرغم من أنه، وبلا ريب، هو أحد أفضل اللوبيهات في واشنطن من حيث التمويل والقدرات، وفي واقع الأمر فإن لديهم تنظيماً ضخماً وكفئاً يتجسد في إيباك، لكنه لا ينحصر فيه. يمتد نفوذ إيباك ليصل إلي داخل مؤسسات الدولة والهيئة التشريعية الفدرالية، ومراكز الشرطة والأحرام الجامعية، و يقدم مقال ميرشايمر وولت سردا مفصلا لأساليب إيباك ووسائله وأمواله ونفوذه. لا يكتفي إيباك بالإسهام بمبالغ كبيرة لتمويل معظم الحملات الانتخابية (بما في هذا تمويل الطرفين المتنافسين في نفس الحملة) بل إنه لا يتردد في عقاب من ينظمون حملات ضد السياسات المناصرة لإسرائيل أو يجاهرون بآرائهم عنها. والقول بأن إيباك واللوبي المناصر لإسرائيل يعملون داخل إطار الثقافة السياسية لواشنطون وضمن حدودها هو إنكار لاستخدام إيباك بأسلوب بالغ الفعالية لموارده للزج بروايته في وسائل الإعلام والتيار الرئيسي ودهاليز السلطة. وبالمثل، فإن وضع إيباك في السياق الصحيح لا يعني بأي حال المصادقة علي هجوم أبرام فوكسمان

وألان درشوويتز علي المصداقية والصرامة البحثية لأمثال ميرشايمر ووولت وبتراس وغيرهم.

تهيمن فكرة تحكم اللوبي اليهودي في سياسات واشنطون من جهة لأنه من السهل تقبلها، كما تبدو أنها تنبعث من خلال دعاية إيباك وكفاءته وتنظيمه الهائل، ومن هذا المنطق، فإن إيباك ضحية نجاحه. يخلق حضوره اللافت في دهاليز السلطة ونجاحه في جمع الأموال، وحملات علاقاته العامة فكرة أن أيديه متواجدة في عقول جميع السياسيين وجيوبهم بمن فيهم الأفرع الأخري للمجمع الصناعي/ العسكري/ الأكاديمي. علاوة علي ذلك، فإن الحجم المحض لإيباك وسطوته وثروته، وحضوره مرتفع الصوت في أي نقاش عن إسرائيل حتي لدرجة إجباره اللوبيهات الأخري المناصرة لإسرائيل والأكثر صداقة مع الإعلام علي خفض صوتها، يعرّض ذلك التنظيم للفانتازيات المعادية للسامية والتنميطات المتعضونة في اللاوعي الثقافي والتاريخي لأمريكا البيضاء البروتستانتية. وفي واقع الأمر فإن فكرة القوة الشاملة الكاملة للوبي اليهودي تبدو منطقية بحيث يصدقها الكثيرون بسبب طبيعة مسارات السياسات في واشنطون حيث تقوم الجيوب الأكثر امتلاء بتشحيم العجلات الحكومية والحزبية.

بيد أنه، وكما يذهب هذا الكتاب، فإن «الروابط التي تنفصم عراها» بين الولايات المتحدة وإسرائيل ودعمها الذي لا يتزعزع تنجم عما هو أعمق وأطول بقاء بكثير من مجرد سياسات «ادفع كي تلعب» التي تتبعها واشنطون الشركاتية والتي تديرها اللوبيهات. فلو أن دعم الولايات المتحدة الذي لا يتزعزع لإسرائيل يتوقف علي الأموال، فمما لا شك فيه أن باستطاعة اللوبيهات المؤيدة للعرب وبمساعدة البترودولارات وأثرياء الجالية العربية الأمريكية أن تنفق أكثر مما ينفقه إيباك كي تحقق أهدافها. الأحري هو أن الأيديولوجيا هي التي تُبقي علي دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، حتي في مواجهة انتهاكاتها البشعة لمواثيق حقوق الإنسان الدولية والقوانين الدولية. يتواءم الأمريكيون مع تلك الرواية القومية التي تُمجّد «الرواد» الذين قاموا بإصلاح أرض

«خاوية» وجعلوها أكثر إنتاجا ووفرة وسخاء من سكانها الأصليين، بل يشعرون بقدر من الود والحب تجاههم. يعتقدون أن التاريخ يضم الفائزين والخاسرين ويكتسب الفائزون الحق، بالرغم مما يمثله هذا من سوء حظ للخاسرين، في تقديم أنفسهم للعالم كنموذج يحتذي به في الديموقراطية والحرية، مهما اختلف هذا مع الواقع الذي يعاني منه السكان الأصليون. يتوام الأمريكيون مع رواية غزو يشوع لأريحا ومع فكرة الشعب الإنجيلي الأبيض وهو يصلح الأرض [الأمريكية] التي وعد الرب بها ومن قبل أن يحتلها ذوو البشرة السمراء حتي علي الرغم من عدم وجود تاريخ سابق لتواجده علي هذه الأرض.

الأيديولوجيا التي تربط إسرائيل بالولايات المتحدة معقدة ومتعددة الأوجه وهي ذات الأيديولوجيا التي توظف التضمينات المختلفة للإسلاموفوبيا للحفاظ علي هيمنتها علي الكوكب، وهي أيديولوجيات تتناسج أيضا في جميع الأطياف السياسية بالولايات المتحدة وإسرائيل. ليست إسرائيل هي الذيل الذي يحرك كلب الولايات المتحدة، ووفقا لما قاله المفكر والمستشرق العظيم ماكسيم رودينسون منذ حوالي أربعة عقود فإن إسرائيل توظَّف كرأس جسر في المنطقة لخدمة مصالح سياسية وعسكرية خاصة؛ وكما صرح المسئولون السياسيون الإسرائيليون والأمريكيون تكرارا، فإن إسرائيل، علي أقل تقدير، «رأس جسر» للقيم الغربية والأمريكية في منطقة هي خلو من تلك القيم.

تنعكس تعقيدات تلك المصالح في تعقيدات المشهد السياسي الداخلي بالبلدين. وبالمثل، يمضي اللاعبون الداخليون بالبلدين ينأون عن حلفائهم المحتملين في البلد الآخر، ويتحولون بعيدا عنهم، ويتوددون إليهم ثم يهاجمونهم من أجل المكاسب السياسية والقيادة الاستراتيجية. إن معادلة الولايات المتحدة/ إسرائيل عملية حسابية قائمة ومعقدة للمصالح السياسية والتلاعبات الداخلية والدولية. وعلي حين تظل المتغيرات في المعادلة دينامية، فإن كثيرا من الثوابت تشكل بنية المعادلة أي التفوق الإسرائيلي والأمريكي في المنطقة. وفي هذا الصدد فإن الرابط بين معادلة

العلاقات الأمريكية والإسرائيلية هو بنية فوقية أيديولوجية مشتركة، نوع من منطق الإمبراطورية الرياضي المشترك.

ما علينا إلا الاستماع لبعض أصوات العاملين في المجال السياسي الأمريكي كي نتبين كيف تتلاقي المصالح الإمبريالية والاقتصادية المشتركة لإسرائيل والولايات المتحدة. وفي واقع الأمر فإن مصادقة درشوويتز علي ترشح أوباما تكشف عن استراتيجية للصهاينة الأمريكيين تؤكد علي عدم وجود لوبي صهيوني واحد موحّد (أي كيان واحد علي هيئة منظومة تراتبية). الأحري أننا نجده يحث قراءه علي أن يصوتوا لصالح الداعم القوي لإسرائيل وليس للمرشح الأفضل لإسرائيل وذلك لأن «إسرائيل ليست مسألة تنقسم حولها الآراء في الولايات المتحدة ومن ثم فإن التصويت للرئيس ليس استفتاء علي دعم إسرائيل». يعترف درشوويتز أنه يأمل في الحفاظ علي الوضع الأيديولوجي القائم كما هو، حيث إن وحدة الأيديولوجيا والهدف تشكل الدعامة التحتية للتحالف الإسرائيلي الأمريكي وتؤكد عليه. ليست تلك أيديولوجيا متفردة، أيديولوجيا أحزاب، كما أنها لا تتكون من بنود برامج سياسية أو شعارات متداولة لا معني لها. إن الخلاف حول المستوطنات بين أوباما ونتنياهو وتشحانهما حولها عام ٢٠١٠ يوضح أن متانة علاقة الراعي/ العميل التي تربط الولايات المتحدة بإسرائيل تكمن في متانة الأيديولوجيا المشتركة حيث تتلاقي المواقف السياسية التي ما كان لها أن تجتمع معا (أوباما الليبرالي وناتنياهو اليميني) في أجندة مشتركة من أجل الحفاظ علي الهيمنة الغربية علي الشرق الأوسط.

يدرك المرء بوضوح لدي قراءة السيرة الذاتية لمارتن إنديك بعنوان «البريء في الخارج» كيف يعمل هو وغيره من الصهاينة الأمريكيين علي التوفيق بين المصالح المتناقضة لسياساتهم وبين ولائهم لأيديولوجيا قوة الولايات المتحدة وإسرائيل وسطوتهما. تماثل تلك السيرة الذاتية، التي تُعلي من شأن صاحبها، من حيث البنية واللهجة والتموضع السياسي، وبدرجة لافتة كتاب دنيس روس «السلام المفقود» مثلا، يتجنب إنديك مناقشة تنافساته وخلافاته مع الصهاينة الأمريكيين من اليهود وغير

اليهود والذين ينتمي بعضهم للحزب الديموقراطي وينتمي معظمهم للحزب الجمهوري، وكذلك خلافاته مع السياسيين الإسرائيليين وعلاقاته بهم. يؤكد إنديك علي وجود أولويتين، متعارضتين ظاهرياً، لكنهما متكاملتين رغم تبنيهما من قبل مجموعتين متقابلتين، وجودهما أثناء عمله الديبلوماسي بإدارة كلينتون. من جهة، كان إنديك ديبلوماسي كلينتون الرئيسي بالمنطقة، وكان سفير الولايات المتحدة بإسرائيل، وعمل في نهاية المطاف مفاوضا نيابة عن كلينتون في محادثات السلام. ومن جهة أخري، عملت «الهوية اليهودية» لإنديك، والذي كان أحد الناشطين السابقين بإيباك، وشارك في تأسيس معهد واشنطون لسياسات الشرق الأوسط الموالي لإسرائيل، عملت علي «توليد رغبة في أعماقنا جميعا [فريق السلام لكلينتون والذي كان أعضاؤه جميعهم من اليهود] للتوصل إلي سلام لأننا كنا نؤمن أن أمن إسرائيل يتوقف علي إنهاء النزاع مع جيرانها العرب». تروي قصة إنديك المخططات والمناورات التي استخدمت لإدارة الشخصيات والصراعات السياسية والتجمعات والتفاوضات المصغرة علي تلك الصراعات؛ أو بصياغة أخري تروي تعقيدات الحياة السياسية في البلدين، وبين الولايات المتحدة وإسرائيل. من التبسيط النظر إلي رواية إنديك علي أنها غير متميزة بسبب صراعاته مع الصقور الإسرائيليين (حول الاستراتيجية بأكثر منها حول الأيديوجيا): الأحري أن فائدة روايته تكمن في كشفها العامل المشترك التحتي للسياسة الخارجية الأمريكية والقيادات الإسرائيلية وشخوص وزارة الخارجية الأمريكية، أي أن انطباعاته عن نظرائه العرب ونضال الشعب الفلسطيني ذات بعد واحد ومسطحة تماما. يتسق نهجه إزاء القادة العرب وبخاصة الفلسطينيون والسوريون والعراقيون مع رواية روفائيل بطي التي تصور الحكومات العربية ملوكا وحكاما مصابين بجنون العظمة يحكمون مجتمعات وثقافات سياسية لديها نزوع لأن «تتأسل وترتد إلي تبني توجهات أسلافها العنيفة القبلية والأصولية».

تستخدم الوسائط الإعلامية، والمحللون والمنظّرون كتابات إنديك وروس كبرهان علي أن الديبلوماسيين الأمريكيين من ذوي الروابط القوية بإيباك يمكنهم أن يكونوا

وسطاء متوازنين بين إسرائيل والعرب وذلك لأنهم يبغوض نتنياهو أكثر أحد الشخصيات الإسرائيلية إثارة للكراهية. بدا «شجار» أوباما مع إسرائيل، وبخاصة مع إدارة نتنياهو، للبعض من أمثال درشوويتز علي أنه دلالة علي أن أوباما قد «انقلب علي إسرائيل». بيد أن هذا «الشجار» لم يخرج عن كونه أكثر من تفاعل سياسي آخر بين إسرائيل والولايات المتحدة نجم عن «الإهانة» التي وجهها نتنياهو لجو بايدن، وهو أحد أكثر الصقور الأمريكيين الداعمين لإسرائيل حماسا، حينما أعلنت تل أبيب التوسع في المستوطنات غير القانونية أثناء زيارة نائب الرئيس لإسرائيل. بيد أن إجراءات نتنياهو لم تكن حسابات خاطئة، كما لم تكن مجرد صفاقة أو مثال علي اعتقاد إسرائيل في حصانتها ضد أي نقد أو إجراءات، إذ إن «الإهانة» التي وجهها نتنياهو لبايدن كانت مجرد تكتيك سياسي ظلت إسرائيل علي مدي عقود تستخدمه كدولة تابعة مع الأمريكيين، وأيضا تستخدمه كدولة محتلة مع الفلسطينيين. قُصِد بهذا الاستفزاز خلق وضع سياسي أو تضخيمه يجبر الولايات المتحدة علي الاستسلام لاستراتيجية مفادها أن باستطاعة إسرائيل فعل ما تريده في النهاية، أو حسب ما قاله نتنياهو «إن أمريكا شيء نستطيع تحريكه بسهولة شديدة».

لا تعني هذه المقولة أن إسرائيل تتحكم في الولايات المتحدة، بل تكشف عما هو أكثر قيمة، أي عن استراتيجية إسرائيل في سياق قوة الولايات المتحدة الكوكبية، بمعني أن إسرائيل، هي في النهاية، دولة تابعة يقوم اقتصادها علي المعونة، والميزات التجارية الخاصة التي تتيحها لها الولايات المتحدة ومعها التمويلات الخاصة المهولة التي تمكنها من التوسع في الأراضي المحتلة. كثيرا ما ينظر إلي استراتيجية إسرائيل في الحفاظ علي أهدافها الإقليمية علي أنها تقوم علي أساس التقدم إلي شفير الحرب ثم الإحجام عن الاشتباك لكن هذا تكتيك وليس استراتيجية. فعلي الرغم من مكانتها المفضلة والنفوذ الكبير الذي يتمتع به عملاؤها ومؤيدوها، فإن إسرائيل، في النهاية، ليست في وضع من يتحكم بالولايات المتحدة. بيد أنها في وضع مميز تدرس من خلاله العملية الحسابية المعقدة للمتغيرات والثوابت السياسية الداخلية والإقليمية

التي تطوق مصالح الولايات المتحدة الخارجية والاقتصادية وتسهم فيها. وفي إطار منظومة الشروط والتفاهمات تلك، تستخدم استراتيجيتها نظرية لتلاعباتها تحسب من خلالها التداعيات المحتملة لأحد إجراءات (مثل إعلان توسيع المستوطنات في تحدٍ لبايدن) والتي ستكون جميعها، بأسلوب ما، مفيدة لمصالحها. ظلت تل أبيب تستخدم هذه النظرية باتساق وتحسب جميع التداعيات الممكنة لمواصلة سياسة إقامة المستوطنات غير المشروعة، وفي التفاوضات مع الفلسطينيين، سواء في أوسلو أو شرم الشيخ، وفي استخدام العدوان العسكري لإثارة رعب الحكومات الأجنبية والتلاعب بها، كما في حالة حربها علي لبنان عام ٢٠٠٦، أو استخدام القوة المسلحة لكسر شوكة المقاومة الفلسطينية كما في حربها علي غزة أو هجومها علي أسطول الحرية. الأحري أن تلك التداعيات «هدف» يجب رعايته، أو «تحريكه» وفقاً لمقولة نتنياهو، أو «حفزه» بحيث يعمل من أجل تحقيق أفضل مصالح إسرائيل، لأن جمهور الولايات المتحدة وسياسييها ينظرون إلي رد الفعل ذاك علي أنه يحقق أفضل مصالح واشنطون.

التزم أوباما الصمت إلي حد كبير إزاء الإهانة التي تلقاها بايدن، الذي وعلي الرغم من تهليله المعتاد لإسرائيل أدان سلوكها الطائش. في تلك الأثناء، قام أوباما بنشر مساعديه كي يقوموا بمناورات في مواجهة مخططات نتنياهو الدعائية. ومن ثم، مضي دايڤيد أكسلرود، كبير مساعدي أوباما والصهيوني المتشدد، يركز في أحاديثه التليفزيونية الصباحية في مختلف المحطات علي أن «الشقاق» الذي نجم عن سوء حسابات نتنياهو لا يعني أن أوباما اتخذ موقفا معاديا لإسرائيل، بل يعني أن موقف نتنياهو يعمل علي تقويض مصداقية الولايات المتحدة في المنطقة وقدرتها علي التوسط لعقد صفقة سلام بين إسرائيل والفلسطينيين. وفي واقع الأمر، إنه، وعقب بضعة أشهر، كان نتنياهو هو من أبدي، في البيت الأبيض، قدرا كبيرا من التوقير والإذعان للرئيس، أي أن أوباما قد أدار، بأسلوب ديبلوماسي ومقتدر في آن، دفة أجندة نتنياهو السياسية مؤكدا علي «خصوصية» العلاقة الأمريكية الإسرائيلية، مع الحفاظ علي التراتبية الواجب الالتزام بها.

وفي واقع الأمر، فإن تركيز أكسلرود علي مصداقية الولايات المتحدة يجزم بما هو أكثر، حيث إن رغبة أوباما في تشجيع حل الدولتين لا علاقة له بمظالم الشعب الفلسطيني، كما عبر عن ذلك بوضوح خطابه في القاهرة. يريد أوباما التوصل إلي اتفاق يقوم علي أساس حل الدولتين لأنه مهتم بالمدي الطويل لمصداقية الولايات المتحدة وسطوتها في المنطقة، وأيضا بأمن حليفتها الرئيسية هناك، أي إسرائيل، تلك الدولة التابعة والشقيقة الأيديولوجية. أدت قضية المستوطنات إلي تصدعات مرئية في صفوف المناصرين لإسرائيل بالولايات المتحدة. ساند تنظيم جيه ستريت، أو المؤتمر الحزبي الذي أقيم لمجابهة أجندة إيباك اليمينية الصهيونية، ساند أوباما. كان التصدع الأيديولوجي في صفوف الحركة المسيحية واليهودية المناصرة لإسرائيل قد بدأ منذ بضع سنوات، وفاقمه استيلاء المحافظين الجدد علي القضايا الصهيونية وأمن إسرائيل من الليبراليين، وسوء تعاطي الصقور الصهاينة الأفظاظ بإدارة بوش مع هذه القضايا. بدأت المقالات الناقدة للصقور الصهاينة في التزايد، مقالات ذهبت إلي أن العسكرة وسياسة التدخل في الشرق الأوسط تضر بقوة الولايات المتحدة وسطوتها ومصداقيتها، وأيضا بأمن إسرائيل ومستقبلها. لم يقتصر الأمر علي ذلك، بل ذهب تنظيم جيه ستريت واليهود الليبراليون المناصرون لإسرائيل لحد المطالبة بحدوث نقلة معيارية داخل المعسكر الموالي لإسرائيل وذلك لأنهم يرون أن إيباك وغيرها من المتشددين يضرون باستمرار دعم الجالية اليهودية الأمريكية لإسرائيل، وبخاصة الشبان اليهود الأمريكيين الذين لا يرتبطون بقوة بدولة إسرائيل.

ظهرت مقالات كثيرة تبين مكاسب حل الدولتين، ومزايا التنظيمات الصهيونية «الليبرالية» «المناصرة للسلام» مثل تلك التي مثلها جيه ستريت. أزعجت معارضة السياسات المتشددة المناصرة لإسرائيل، تلك المعارضة التي انبثقت من داخل الجالية اليهودية الأمريكية أزعجت بخاصة أعضاء إيباك وعلي رأسهم درشوويتز. ومرة أخري يمدنا درشوويتز ببصيرة داخل الذهنية الاستراتيجية لإيباك لدي نقاشه مع هادار ساسكيند ممثل جيه ستريت. يحث درشوويتز بقوة علي الوحدة ويدعو أعضاء جيه

ستريت للانضمام إلي إيباك من أجل التأثير فيه من الداخل بدلا من الهجوم عليه من الخارج، والانتقاص من هدف مناصرة إسرائيل. وفيما يفكر درشوويتز داخل الإطار السياسي الأمريكي الأوسع لكيفية كسب أكبر دعم ممكن لبرنامجه أحادي القضية، فإن تفكير ساسكيند أكثر تناغما مع النقلة المعيارية التي يتبناها أوباما، حيث يفكر في التغيير الديموجرافي المحتمل داخل الولايات المتحدة والتحديات التي تواجه الحفاظ علي مرونة الإمبراطورية الأمريكية الضرورية لبقاء إسرائيل. وهاتان الاستراتيجيتان من المفاهيم الغريبة التي لا يستوعبها مفكرو القوة الصلبة أحاديو الرؤية. ولهذا السبب، قام وليام كريستول، أثناء مشاحنات أوباما/ نتنياهو حول المستوطنات والشقاق بين چيه ستريت وإيباك، قام، ومعه عدد من كوادر المحافظين الجدد والأصوليين المسيحيين بتشكيل «لجنة طوارئ» متشددة أسماها «الجناح المناصر لإسرائيل من الجالية المؤيدة لإسرائيل». وعلي حين ذهب ساسكيند إلي القول بأنه ثمة حاجة لوجود تنظيمات يهودية ليبرالية لمجابهة سياسات إيباك التي لا يتفق معها، فقد انتهي إلي أنه وعلي الرغم من الاختلافات العميقة في البرامج والتكتيكات «إلا أننا [إيباك وجيه ستريت] نقف علي نفس الجانب».

علي المستوي المصغّر [المايكرو]، تشير الانقسامات داخل الجماعة المناصرة لإسرائيل بالولايات المتحدة إلي أن الإمبراطورية الأمريكية، تعيد تشكيل منظومة حكمها الإقليمي وأهميتها في إطار الفلسفة العملياتية المزعومة للقوة الذكية واستراتيجيتها. يؤشر ظهور خطوط شقاق داخل جماعة سياسية اعتادت أن تتباهي بواجهة الوحدة السلسة المتسقة يؤشر علي احتمال حدوث نقلة في المنظومة السياسية داخل إسرائيل. سابقا، كان التوازن بين المعسكرات الإسرائيلية المتنافسة يعمل علي التخفيف من ضراوة الحركة الصهيونية الأمريكية ونزوعها القتالي. لكن مع نهاية وجود تيار «ليبرالي» و«يساري» قابل للحياة في إسرائيل، فقدت القوة الصلبة الصهيونية وسياساتها أكثر أدواتها للعلاقات العامة تأثيرا وفعالية. أي وجود حزب قابل للحياة بإمكانه أن يستدعي لغة السلام، والعيش المشترك وحل الدولتين، ذلك

الوجود وتلك اللغة التي كانت قد عملت علي حرف الانتباه عن سياسات الاحتلال علي أرض الواقع والتي كان الليبراليون واليساريون الإسرائيليون قد صادقوا عليها. لا يعنى هذا القول إنه قبل النقلة الإسرائيلية إلي اليمين وتخلي الصهيونية «الليبرالية» عن المثل الاشتراكية في تسعينيات القرن الماضي، ذلك التخلي الذي حفزته استراتيجية «القطيعة الكاملة Clean Break»، لا يعني أن الصهيونية كانت أكثر نعومة. الأحري أن وجود العديد من الآراء داخل المجتمع الإسرائيلي السياسي والمدني نجح في إخفاء أصول سياسات إسرائيل غير المشروعة ومبتغاها. ومع أخذ هذا في الاعتبار، فإن التوترات والانقسامات التي شهدها المعسكر الموالي لإسرائيل وكما أوضحته الخلافات بين إيباك وچيه ستريت تلفت الانتباه إلي خطاب السلام الذي تبناه حزب العمل والذي تم إخراسه بشكل شبه كامل من خلال صلافة الليكود وكاديما وهيمنتهما علي الحياة السياسية في الداخل الإسرائيلي.

الأهم من ذلك ومن حيث المستوى الأشمل لهيمنة الولايات المتحدة سياسيا، فإن التوترات التي حدثت بين إدارتي أوباما ونتنياهو تختلف عن التوترات بين إدارة أوباما وإيباك التي لم تكن تتعدي تشاحنات مايكروسياسية تتعلق بتقلبات السياسات الانتخابية ودرجات متفاوتة من الاختلاف داخل نفس الإطار الأيديولوجي، أي أيديولوجيا هيمنة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط واستراتيجيات الحفاظ عليها في سياق دعمها الذي لا يتزعزع لإسرائيل، وهذه الاختلافات تعكس الاختلافات في الرؤي الاستراتيجية الداخلية بين تلك الأطراف، وليس اختلافات رؤي عالمية حول قوة الولايات المتحدة وإسرائيل بالمنطقة. أي أن تلك التشاحنات العلنية الثانوية التي عكّرت صفو العلاقات السلسلة بين إيباك وتلك الأطراف في الإدارة تعكس الاختلافات بين من يؤيدون القوة الذكية في الداخل الإسرائيلي والأمريكي، وبين من يفضلون أساليب العسكرة والسياسات التدخلية في ذات الوقت. تعود التوترات بين أوباما وإسرائيل، إلي اختلافات فى النماذج المعيارية والاستراتيجيات، وبخاصة التزام البيت الأبيض في عهد أوباما بتوسيع نطاق قوة الولايات المتحدة من خلال أساليب

القوة الذكية واستراتيجياتها بالتقابل مع استخدام نتنياهو الفج للقوة الصلبة التي رعتها إدارة بوش بحماس. من ثم، فليس هذا «الصراع» أيديولوجيا، بل هو تكتيكي و«عملياتي».

وهكذا، فليس التشاحن بين إدارة أوباما وإسرائيل علي توسيع المستوطنات دليلا علي مخطط أوباما «الخبيث» للتخلي عن إسرائيل، بل دليلاً علي التزام إدارته علي إطالة عمر هيمنة إسرائيل والولايات المتحدة في المنطقة من خلال تقوية موقفهما بإضفاء القانونية والمشروعية عليه. علاوة علي ذلك، فقد دأب أوباما طوال حملة ترشحه ثم رئاسته علي أن الوسيلة الفضلي لضمان المصالح الأمريكية وأمن إسرائيل هي إعادة الحياة إلي مصداقية الولايات المتحدة في إطار سياق «عملية السلام». تدرك إدارة أوباما تماما أن «عملية السلام» ضرورية لإضفاء المشروعية علي الدولة الصهيونية، وأن هذا بدوره ضروري لحفاظ واشنطون علي هيمنتها السياسية والاقتصادية فى المنطقة.